يُوسُف بن تَاشُفين
التجربة التاريخية الرائدة

(دراسة تاريخية)

الكاتب: عمر أعراب

(لِمِثْلِ هَذا فليَعْمَلِ العَامِلونَ)

صدق الله العظيم

الصّافات- ٦١

مقدمة..

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا.

وبعد..

إن البحث في الشخصيات والأعلام التاريخية يعد من أصعب البحوث والدراسات في التاريخ، فبخلاف البحث في الأحداث الكبرى والظواهر المؤثرة، وفي الدول والمدن والحضارات والعصور الزمنية بشكل عام؛ فإنَّنا هنا في دراسة الأشخاص نلجأ إلى نوع من التعمق والتجزء والتخصص والاهتمام بالتفاصيل، ففي مثل هذه الأبحاث نذهب إلى دراسة الشخص الموضوع بكامل متعلقاته وحياته، ومسيرته وتجربته الخاصة والعامة وعلاقاته مع حضارته وزمنه، أي أننا هنا نهتم بالخاص والعام معًا، مع تغليب الخاص.

كما تتجلى صعوبة البحث التاريخي المنصب على الشخصيات والأعلام في الخوض ما أمكن في تفاصيل حياته المرتبطة بدوره التاريخي الكبير، من ولادة ونشوءٍ ثم طفولة فشباب، ثم كهولة وشيخوخة ووفاة، وهذا يعني سبر أغوار المصادر التاريخية والمرويات الإخبارية المُنْصبَّة حول الشخص موضوع الدراسة، من كتب التاريخ والأدب والسير والمناقب وتراجم الأعلام، ثم المراسلات والشّواهد الأثرية، وغيرها من مصادر المعرفة التّاريخية، التي كان أربابها معاصرون للحدث ولصاحبه.

كما يجب الالتفات أيضًا إلى المراجع والدّراسات الحديثة التي اجتهدت ودرست موضوع البحث، واعتمدت على المصادر السابقة، وقدمت رؤىً واستنتاجات وتعاليق يُستأنس بها ويُؤخذ بها بعين الاعتبار، لا سيما تلك المندرجة ضمن الحقل الأكاديمي وموضوعيته العلمية، وما قدم فيه المؤرخون والباحثون والمهتمون بالتاريخ والحضارة، وكذلك النظر في الكتابات الاستشراقية وما ألفه المستشرقون في الموضوع، مع أخذ الحيطة والحذر في تناول دراسات وإنتاج الاستشراق المهتم بتاريخنا الإسلامي، إذ إن غالبها يكون مغرضًا.

وبالطبع فإن موضوع عملي هذا يخص تاريخنا الإسلامي وحضارته، وهو أحد الأعلام والشخصيات البارزة والمؤثرة في فترة من فترات تاريخ الإسلام والحضارة الإسلامية ومسيرة المجتمعات المسلمة، إنه يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين في المغرب والأندلس، وأحد كبار القادة والأمراء في تاريخ الغرب الإسلامي، وهو من الشّخصيات العظيمة ذات البعد الكبير والأثر العميق في مجمل التاريخ الإسلامي، وتجربته من التجارب المضيئة والمنيرة في تاريخنا، وتعتبر بحق امتدادًا لتجارب الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين من أصحاب رسول الله ﷺ.

لكن تجربة يوسف بن تاشفين هذه قد طالها النسيان، وهُمشت في صفحات كتب التاريخ، وفي المقررات الدراسية لمناهج التعليم، وصارت من المواضيع المنسية التي يراد لها أن تُهمش وتُستبعد من حياتنا التعليمية والثقافية، وذلك في إطار الحرب الحضارية والنفسية التي يقودها تيار التغريب والعلمنة على أمتنا وعلى ديننا وهويتنا الإسلامية، فكان هذا من أبرز دوافعي التي قادتني نحو

الاهتمام بهذا الموضوع، وجعله موضوع بحثي للتخرج من الجامعة، في تخصص التاريخ والحضارة، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، قبل أربع سنوات.

وقد تم الأمر بالفعل وتخرجت من الكلية ونلت شهادة الإجازة (الليسانس) في قسم الدراسات التاريخية والحضارية، بموضوع بحث كان عنوانه: «يوسف بن تاشفين من خلال الكتابات التاريخية»، وكان إذ ذاك يشوبه الكثير من النقص، وقد اقتصرت فيه على جمع النصوص التاريخية من مصادر ومراجع ودراسات حول شخصية يوسف بن تاشفين، مع الفصل بين المصادر القديمة والدراسات الحديثة، والتعليق في النهاية عليها، الذي كان- بطبيعة الحال- بتوجيه من الأستاذ الجامعي والمشرف على البحث آنذاك، الذي لم يكن هذا الموضوع يدخل ضمن اهتمامه وتخصُّصِه الأكاديمي!

الأمر الذي جعلني الآن أَقْدِمُ على هذه الخطوة التي كنت أفكر فيها منذ مدة، وهي تحويل هذا البحث الجامعي المنقوص إلى كتاب يكون جامعًا وفي نفس الوقت موجزًا ومبسطًا بقدر الإمكان، حول هذا الشخص العظيم، شخص يوسف بن تاشفين ومراحل حياته وفصول سيرته الجهادية والسياسية والحضارية في المغرب والأندلس، وآثارها العظيمة ليس فقط على هذين القطرين بل على العالم الإسلامي أجمع.

لذا قمت بإعادة صياغة عنوان هذا الموضوع فكان: «يوسف بن تاشفين: التجربة التاريخية الراشدة»، وقصدي فيه بيان معالم شخصية يوسف بن تاشفين، فهو ليس مجرد قائد من القادة التاريخيين الذين مر زمانهم فيما مضى بما له من إيجابيات وسلبيات؛ بل لن أبالغ إن قلت بأنه رجل صار أشبه بالصحابة الكرام، وتجربته التاريخية ليست ككل التجارب الأخرى لشخصيات سياسية وعسكرية في تاريخنا؛ لكنها تعد أقرب إلى تجارب الخلفاء الراشدين، وبالتالي كانت تجربته هذه تجربةً راشدةً بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ.

كما قمت كذلك بإعادة وضع التصميم ورسم الخطة لهذه الدراسة، على نحو يلائم موضوع البحث، فكان أن قسمت هذه الدّراسة إلى ثلاثة فصول رئيسية، وكل فصل بمحاوره ومباحثه الفرعية على النحو التالي:

الفصل الأول بعنوان: «الانطلاقة من المغرب»، الذي يشمل البداية التاريخية لتجربة يوسف بن تاشفين، بميلاده في صحراء شنقيط ببلاد المغرب ونشأته بين قبائل صنهاجة، ثم انضمامه إلى دعوة عبد الله بن ياسين ولحركة المرابطين، التي سيصبح من أبرز قادتها العسكريين بقيادته لعمليات الفتح في جنوب المغرب الأقصى، ثم توليته للحكم المرابطي في مناطقه المفتوحة، وتأسيس دولة المرابطين بها والتوسيع من رقعتها، وكذلك بناء العاصمة مراكش والسيطرة على كامل المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط، ليصبح بذلك أمير المغرب الأقوى.

وقد كان هذا الفصل عبارة عن مختصر للشَّطر الأول من حياته وتجربته الجهادية التاريخية، مع انطلاقه من الصحراء ضمن حركة المرابطين، وكذلك تجربته السياسية والحضارية بتأسيسه لدولة المرابطين وتوسيع سلطانها في بلاد المغرب، فأنهى بذلك مأساة المغرب التي كانت تتجلى في الاضطراب والتناحر عن طريق توحيده وبناء دولة قوية فيه.

وفي الفصل الثاني الذي يحمل عنوان: «التَّوجهُ نحو الأندلس»، تتجلى المحطة الثانية من سيرة يوسف بن تاشفين الجهادية والسياسية والتاريخية والحضارية، إذ إن عبوره إلى الأندلس بعد أن

استنجد به أهلها أعتبر بداية ثانية في مسيرته التاريخية، التي استطاع فيها حماية الأندلس الإسلامية بعد التصدي للقوى النصرانية في معركة الزلاقة، ثم إزالة حكم ملوك الطوائف المتمادين في إضعافهم للبلاد وخيانتهم لأهلها، ومن ثمَّ الإقدام على ضم البلاد وجعلها تحت لواء دولة المرابطين الكبرى، بعد توحيدها وجعلها جبهةً قوية تقف في وجه المدِّ الصليبي.

بالإضافة إلى وفاته التي كانت بعد استكماله لجهاده في الأندلس، ثم تركه للميراث العظيم المتجلي في دولة قوية تشغل مساحةً واسعة في بلدان الغرب الإسلامي، فكانت تجربته الأندلسية ذات أثر بعيد في التاريخ، جعلت منه أحد كبار الرموز الحضارية في التاريخ الأندلسي.

وفي الأخير يأتي الفصل الثالث بعنوان: «تجربة يوسف بن تاشفين... آثارها وموقعها في التاريخ والحضارة»، الذي يقدم تقييمًا وتقديرًا لتجربة يوسف بن تاشفين، التي لها وزن كبير على المستوى التاريخي والحضاري، من نواحٍ كثيرة كسِمَاته الشّخصية والأخلاقية ثم معالم جهاده المتواصل وقيادته السياسية، وكذا تعامله مع الخصوم من خلال ما وقع بينه وبين ملوك الطوائف، وأيضًا ارتباطه بالخلافة العباسية واتخاذه على إثر ذلك لقبه التاريخي المميز «أمير المسلمين»، ثم كذلك نظرة شاملة حول عصره والظروف التاريخية العامة المحيطة به، وكذا مبلغ الحضارة الإسلامية في عهده وعلاقته بالعلماء، ثم أخيرًا وصف تجربته وحكمه بالرُّشد في إطار قربها إلى فترة الخلافة الراشدة.

وأنا لا أزعم هنا أنَّني أُقدِّم جديدًا فيما يخص المعلومات والأخبار عن شخص يوسف بن تاشفين، وكل ما هناك أنني أعدت صياغة سيرة يوسف بن تاشفين بأسلوب مختصر، يمر على أهم نقاط حياته ومسيرته التاريخية وتجربته الحضارية، مع إبداءٍ لبعض المواقف والآراء ضمن كل تعليق على حدث هام.

وطبعًا هناك دراسات سابقة أُنجزت حول يوسف بن تاشفين؛ إلا أنها تبقى محدودة جدًا فيما أعلم، وأشير هنا إلى كتاب «يوسف بن تاشفين» لعبد الله كنون أحد رجال الحركة الوطنية المغربية في القرنِ المنصرم، الذي كان واحدًا من سلسلة كتب ألَّفها وسمَّاها «مشاهير المغرب»، وأنا في الحقيقة لم أطّلع على هذا الكتاب لأنَّني لم أستطع التَّوصل إليه، كما أن هناك كتابًا آخر بعنوان «انتصارات يوسف بن تاشفين» لحامد خليفة، وهو من الكتب القليلة التي تمحورت حول شخص يوسف بن تاشفين، وقد أدرجتُ هذا الكتاب بالفعل ضمن مراجع هذه الدراسة، ولدينا أيضًا كتاب «الزلاقة بقيادة يوسفِ بن تاشفين» للأستاذ شوقي أبو خليل، صاحب الكتابات المبهرة في الفكر والحضارة والتاريخ، وقد ركَّز في هذا الكتاب على معركة الزلاقة ودورها في سيرة يوسف بن تاشفين، وهذا الكتاب بدوره قد أدرجته في قائمة المراجع المعتمدة في هذا العمل.

أما عن باقي الدراسات التاريخية حول شخص يوسف بن تاشفين التي اعتمدت عليها في بحثي هذا، فتندرج في عمومها ضمنِ التاريخ العام، كتاريخ المغرب وتاريخ الأندلس، أو تاريخ دولة المرابطين، أو التَّاريخ الإسلامي الكُلي، ويختلف أصحاب هذه الدراسات الحديثة ما بين مؤرخين وأكاديميين كالدكتور حسين مؤنس، وما بين دعاة ومهتمين كالشيخ علي الصلابي، بالإضافة إلى الإشارة إلى ما كتبه بعض الأجانب والمستشرقين.

أما المصادر التاريخية للموضوع فهي عبارة عن شهادات وكتابات المؤرِّخين والإخباريين المعاصرين ليوسف بن تاشفين، كابن خلدون وابن عذاري وابن الأثير وابن الخطيب، وعبد الواحد المراكشي والمقري التلمساني وابن أبي زرع الفاسي، بالإضافة إلى مُؤرِّخين مُتأخرين لا يعدُّون من المعاصرين له كأحمد الناصري، وكذلك لدينا ما رواه أصحاب كتب المناقب والتراجم مثل الذهبي وابن عماد الحنبلي وابن خلكان، بالإضافة إلى مُؤرِّخين مجهولين كصاحب كتاب (الحلل الموشية) ومؤلف كتاب (الاستبصار).

وبالرغم من توفر هذه المصادر والمراجع وتعددها وتنوعها فإنها في المجمل لا توفر كل ما يتعلق بحياة يوسف بن تاشفين، لا سيما مراحله العمرية الأولى التي بها تتضح مقدمات سيرة كل شخص، وهذا شيء بديهي في دراسة شخص عاش في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، الذي يُصطلح عليه بالعصر الوسيط أو القرون الوسطى، المعروفة بقدمها الزمني وقلة مصادر المعلومات عن أعلامها المشهورين، خصوصًا وأن يوسف بن تاشفين رجل عاش بداية حياته في الصحراء، أي على هامش الحضارة.

لكن هذا لا يجعله مبررًا للتخلي عن دراسة مثل هذه الشخصيات التي تعد من صميم حضارتنا وقدوةً للأجيال المسلمة، وكذلك رمزًا من رموز تراثنا وتاريخنا الإسلامي الممتد على أربعة عشر قرنًا، ولا سيما كما قلنا في كون تجربة يوسف بن تاشفين السياسية والجهادية تقترب كثيرًا من تجارب الخلفاء الراشدين، وهذا ما يجعلنا نزيد أكثر من اهتمامنا به وبأمثاله في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه.

فالاعتراض الذي يأتينا في هذه المسألة بهدف التخلي عن مثل هذه الدراسات هي ادعاءات واهية، ككون الشَّخص موضوع البحث شخصية قديمة لن تنفعنا في شيء، أو أن أعلام العصور الوسطى تَتَّسم دائمًا بالغموض، لذا علينا الاهتمام بالفترة الحديثة والمعاصرة أكثر... وكلها اعتراضات سخيفة وتافهة ليس لها أي سند علمي منطقي وموضوعي، بل إن وراءها نفوسًا مريضةً منهزمةً ثقافيًا وحضاريًا أمام الأجنبي الغربي وتاريخه، الذي هو بنفسه يهتم كثيرًا بكل تاريخه حتى لفترات العصور السحيقة!

ونحن بدراستنا لمثل هذه التجربة نعيد الاعتبار لتاريخنا الإسلامي ولذاكرة أمتنا الإسلامية، ولرموز حضارتنا العظيمة التي كانت الحضارة الإنسانية الأعلى والأرقى -بالمعنى الحقيقي للكلمة-، التي يميزها الكثير والكثير عن غيرها من تواريخ الأمم، وصحيح أن الاهتمام بالتاريخ الحديث والمعاصر له ماله من أهمية؛ إلا أنه ينبغي ألَّا نقتصر عليه فقط، فتاريخنا يعدُّ وحدة واحدة مترابطة ومسترسلة، ومسار أمة كبرى وعظمى يجب الاهتمام به، سواءً كان تاريخًا قديمًا أو حديثًا، أو كان يدخل فيما يسمى بالعصور الوسطى أو في فترة العصور الحديثة والمعاصرة.

بالإضافة إلى أن الاهتمام بمثل هذه الرموز والشخصيات التاريخية نابع من ديننا وحضارتنا، فهو أمر يقوي الهُوية الإسلامية الحضارية الجامعة أمام المدِّ التَّغريبي العلماني الذي يجتاح بلداننا ويضعف أمتنا، فنحن قبل كل شيء نعيش في عصر الهزيمة والتراجع والهيمنة الغربية القاهرة التي تبقينا في حالة التخلف والضياع، وأي اهتمام بأمور مثل هذه يعدُّ نوعًا من الصمود ومقاومة هيمنة الأجنبي علينا.

ويكفي أن نشير إلى الأهميةٍ الكبرى في دراسة تجربة يوسف بن تاشفين التي تتجلى في كونه بالأصل أمازيغيًا خدم الإسلام خدمةً جليلة، وأقام دولة إسلامية كبرى وهي دولة المرابطين، كما شكَّل مجتمعًا مسلمًا يضم عربًا وأمازيغ في كتلة أخوية دينية متلاحمة بالمغرب والأندلس، بل وأقدم على الارتباط بالخلافة العباسية (العربية) في المشرق، لغاية نبيلة وهي تحقيق الوحدة الإسلامية بين شعوب وأقطار العالم الإسلامي.

وهذا من شأنه أن يقف في وجه مزاعم الأيديولوجية الأمازيغية المنتشرة في وقتنا هذا بين أبناء شمال إفريقيا، التي تُحرِّف التاريخ وتدعي كون العرب والأمازيغ أعداءً دومًا، وترفع في خضم ذلك شعارات القومية والعرقية، وتنساق بحقد أيديولوجي عنصري مقيت وراء الدعوات الاستشراقية والكتابات الكولونيالية، لغاية واحدة وهي حرب الإسلام وإحياء النعرات الجاهلية، والضرب في وحدة الشعوب المسلمة في بلاد المغرب الكبير، من أجل تحقيق مصالح وأجندات المستعمر الفرنسي.

وذلك بالرغم من حالات الانقسام والتشرذم التي تعيشها الأمة الإسلامية عمومًا وبلدان المغرب الكبير خصوصًا، لكن أصحاب هذه الأيديولوجية لا يلبثون سوى أن يحدثوا مزيدًا من التقسيم ومزيدًا من التفتيت بيننا، وكل ذلك في صالح الهيمنة الغربية والفرنسية ومصالحها الاستعمارية التي لا تزال تستنزف بلداننا.

ولهذا تأتي مثل هذه الدراسات، التي نرجو من الله تعالى أن تكون تجاربًا معتبرة ودروسًا مستفادة، من أجل إعادة اكتشاف ذاتنا وإعادة تشكيل شخصيتنا وفق ديننا وهُويتنا، ثم بناء حاضرنا هذا والتعامل معه، ثم التخطيط للمستقبل واستشرافه، فهذا في النهاية هو غاية دراسة علم التاريخ ومسار الحضارات والشعوب والدول والأمم، ونسأل الله عز وجل أن يكون هذا العمل -على تواضعه- خالصًا لوجهه الكريم.

عمر اعراب

في ٢٧ شوال ١٤٤٠هـ/ ١ يوليوز ٢٠١٩م

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول
الانطلاقة من المغرب

تمهيد

يوسف بن تاشفين بالرغم من أن شهرته التاريخية قد تجلت بشكل كبير في تجربته الأندلسية، أي بعد عبوره للأندلس وتخليصها من ملوك الطوائف والعدوان الصليبي؛ إلا أن انطلاقته الأساسية كانت من جغرافية المغرب، حيث ولد ونشأ وترعرع ودرج على مراتب الحياة، حتى استطاع تأسيس دولة قوية وهي دولة المرابطين، على فتوحات جلها كانت على يده، وما كان دوره التاريخي في الأندلس ليبرُز لولا الانطلاقة القوية التي بناها في المغرب، حيث شيَّد مدينة مراكش عاصمة لدولته الناشئة واستولى على مجموع المغرب الأقصى وجزء من المغرب الأوسط.

ولذا فإن تجربته الأساسية والمُمَهدَة في بلاد المغرب كانت غنية ومثمرة، بشهادة المؤرخين والباحثين، وكان بحق من أعظم الشخصيات السياسية والحضارية في تاريخ المغرب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

النشأة الأولى وملامحها

كانت سنة ٤٠٠هـ/ ١٠٠٩م فاتحةً للقرن الخامس الهجري، وهي سنة ميلاد يوسف بن تاشفين في قلب صحراء شنقيط في جنوب المغرب الأقصى (موريتانيا حاليًا)، وينتمي إلى إحدى قبائل الأمازيغ(1)، قبيلة لمتونة أحد فروع قبائل صنهاجة الكبرى، ولقبه أبو يعقوب اللمتوني، لا يُعرف عن مكان ولادته ولا عن مسار طفولته وشبابه، فجل ما ورد في الكتابات التاريخية يتحدث عن بروز هذه الشخصية في العقد الرابع من القرن الخامس الهجري، فكان نسبه كالتالي: يوسف بن تاشفين، بن ابراهيم، بن ترجوت، بن وراتسن، بن منصور، بن مصالة، بن أميت، بن وانمال، من لمتونة.(2)

ولابد هنا أن نقف قليلًا عند لمتونة وانتمائها إلى القبائل الأمازيغية الضاربة جذورها في شمال إفريقيا وبلاد المغرب الكبير، إذ إن أصلها -كما ورد في بعض المرويات التاريخية- من المشرق وبالضبط من بلاد العرب، وهنا يتحدث ابن خلدون عن هذه القبيلة وتنقلاتها ويقول:

«هذه الطبقة من صنهاجة هم الملثَّمون الموطَّنون بالقفر وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، أبعدوا في المجالات هناك منذ دهور قبل الفتح لا يعرف أولها. فأسحروا عن الأرياف ووجدوا بها المراد وهجروا التلول وجفوها واعتاضوا منها بألبان الأنعام ولحومها انتباذا عن العمران، واستئناسا بالإنفراد، وتوحشا بالعز عن الغلبة والقهر. فنزلوا من ريف الحبشة جوارا وصاروا ما بين بلاد البربر وبلاد السودان حجزا، واتخذوا اللثام خطامًا تميزوا بشعاره بين الأمم، وعفوا في تلك البلاد وكثروا. وتعددت قبائلهم من كذالة فلمتونة فمسوفة فتريكة فنوكا زغاوة ثم لمطة إخوة صنهاجة كلهم ما بين البحر المحيط بالمغرب إلى غدامس من قبلة طرابلس وبرقة ليبيا. وللمتونة فيهم بطون كثيرة منهم بنو ورتنطق وبنو زمال وبنو صولان وبنو ناسجة... وكانت الرياسة فيهم للمتونة واستوسق لهم ملك ضخم منذ دولة عبدالرحمن بن معاوية الداخل، توارثه ملوك منهم: تلاكاكين وورتكا وأوراكن بن ورتنطق جد أبي بكر بن عمر أمير لمتونة في مبتدأ دولتهم، وطالت أعمارهم فيها إلى الثمانين ونحوها ودوخوا تلك البلاد الصحراوية.(3)

والقبائل الأمازيغية تتكون من ثلاث بطون كبرى وهي: زناتة ومصمودة ثم صنهاجة، وإلى هذا البطن الأخير تنتمي قبيلة لمتونة الصحراوية، إذ إن «موطن هؤلاء الملثمين أرض الصحراء الرمال الجنوبية فيما بين بلاد البربر وبلاد السودان، ومساحة أرضهم ما بين سبعة أشهر طولا وأربعة عرضا وفيهم قوم لا يعرفون حرثًا ولا زرعا، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم اللحم واللبن يقيم أحدهم عمره لا يأكل خبزا إلا أن يمر ببلادهم التجار، فيتحفونهم بالخبز والدقيق وإنما قيل لهم الملثمون لأنهم يتلعثمون ولا يكشفون وجوههم أصلا».(4)

وهذه القبيلة التي ينتسب إليها يوسف بن تاشفين كانت تسكن المناطق الممتدة من وادي نون إلى رأس موغادور إلى مدينة أزكي شرقًا، وكانت المناطق الشمالية مقرًا لبني وارتنطق حول المدينة المذكورة، وقد يكون يوسف ولد في تلك المنطقة، حيث عرفت قبيلته بالسيادة والسيطرة على صنهاجة.(5)

وكانت قبيلة لمتونة قد استجابت مع باقي القبائل الصنهاجية لدعوة الشيخ المالكي الإصلاحية والإحيائية عبد الله بن ياسين الجزولي، وهو الوحيد من تلامذة شيخ بلاد السوس في جنوب المغرب الأقصى وجاج بن زلو اللمطي، الذي قبل بمهمة مرافقة يحيى بن عمر الصنهاجي إلى الصحراء، هذا الأخير الذي كان يبحث عن فقيه يعلم الصنهاجيين الإسلام الحق ويخرجهم من عزلتهم في الصحراء، التي دفعتهم إليها قبائل زناتة المسيطرة على معظم أراضي المغرب الأقصى.

ويحيى بن عمر هذا من زعماء صنهاجة، خرج في رحلة للحج عام ٤٢٧هـ/١٠٣٦م، ولقي في الطريق عند عودته شيخًا مالكيًا وهو أبو عمران الفاسي، فاستمع إلى دروسه، الأمر الذي جعله يطلب منه أحد تلاميذه للذهاب معه نحو الصحراء لتفقيه الصنهاجيين أمر دينهم([6])، لكن لا أحد من تلاميذ الشيخ أبي عمران قبل بهذا، مما جعل هذا الأخير يرسله إلى تلميذه في المغرب الأقصى وجاج بن زلو اللمطي فكان ما كان.

حيث قبل عبد الله بن ياسين هذه المهمة الصعبة، فتحمل مشقة دعوة الصنهاجيين إلى دينهم الصحيح، وخاض معهم في هذا بعد أن كادوا يتخلون عنه، فقام ببناء رباط على نهر النيجر يستقطب فيه أهالي هذه القبائل، ليكون مدرسةً يعلم فيه هؤلاء الصحراويين أصول الدين ومبادئه الشرعية، فكان من بين تلامذته: يوسف بن تاشفين.

وتلقى يوسف تعاليمه الأولى في قلب الصحراء، وترعرع في كنف العلماء وإرشادات عبد الله بن ياسين، فنبغ في فنون الحرب والسياسة الشرعية([7])، إضافة إلى كونه مع ابن عمه أبي بكر بن عمر اللمتوني وأخوه يحيى من الملازمين للشيخ عبد الله بن ياسين، ومن المتقدمين في الصفوف الأمامية لدعوته الإحيائية والإصلاحية، التي قُدِّر لها أن تتحول على يد طالبه يوسف بن تاشفين إلى قوة سياسية تاريخية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قيادة الجيش الفاتح

عمل الشيخ عبد الله بن ياسين على تحويل القبائل الصنهاجية المنصاعة لدعوته إلى قوة عسكرية منظمة، يستطيع بها نشر الدعوة الإسلامية السُّنية وتوجيهها إلى الشَّمال حيث موطنه المغرب الأقصى، الذي كانت تمزِّقه الطَّوائف المنحرفة عقائديًا عن منهاج أهل السُّنة والجماعة، والمتناحرة سياسيًا، لا سيما وأن القبائل الزناتية قد سيطرت بالقهر والجور على مساحات شاسعة من المغرب الأقصى.

ومن هنا ظهرت كلمة «المرابطون» التي أطلقها الشيخ ابن ياسين على أتباعه، إذ كان الشيخ يستقطب أتباعه عن طريق رباطه الذي حوَّله إلى مدرسة علمية وجهادية، وبذلك يكون الشيخ عبد الله بن ياسين قد أسس حركة المرابطين التي تبنت دعوته، واستطاعت بها قبائل صنهاجة في غرب الصحراء الكبرى كسر الحصار المضروب عليها من جهة الشمال حيث سيطرة زناتة، ثم الجنوب حيث البوابة نحو إفريقيا المدارية.([8])

وكان يوسف بن تاشفين من بين قادة الجيش المرابطي الناشئ المنضوي تحت زعامة عبد الله بن ياسين الروحية، وقيادة يحيى بن عمر اللمتوني العسكرية، وقد مر يوسف بمراحل عسكرية ابتدأت بكونه مجرد قائد من المرابطين، ينفذ الأوامر بكل نجاح كباقي القادة، فأهلته هذه المرحلة الغنية بالتجارب والخبرات إلى توليه فيما بعد الإمارة، حيث قاد المرابطين إلى ميادين الجهاد والعزة والكرامة والشرف، فكان أول ظهور لنجم يوسف في معركة الواحات سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، التي كانت مُقدَّمة لتوسع المرابطين في جنوب المغرب الأقصى، بحيث أنه تولى قيادة الجيش المرابطي لفتح مدينة سجلماسة في الجنوب الشرقي للمغرب الأقصى، و تم تعيينه واليًا عليها بعد إظهاره المهارة في الإدارة والقيادة.([9])

وحدث أن توفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني، فولى عبد الله بن ياسين مكانه أخاه أبا بكر بن عمر وقلَّده أمر الحرب والجهاد، فسار المرابطون لغزو بلاد السوس والمصامدة في الجنوب الغربي والأوسط للمغرب الأقصى، فزحف إليها بجيش عظيم جعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين، فدخل سوس وغزا قبيلة جزولة وفتح مدينة ماسة وتارودانت عنوةً، وكانت هذه الأخيرة قاعدة البلاد السوسية، حيث كان بها قوم من الشيعة البجلية، فانتصروا عليهم فعاد من بقي منهم إلى أهل السنة والجماعة.([10])

ويحدثنا هنا مؤرخ المغرب الأقصى أبو العباس أحمد الناصري عن هذه الأحداث ويقول : «ثم ندب المرابطين إلى غزو بلاد السوس والمصامدة فزحف إليها بجيش عظيم في الربيع الثاني من السنة المذكورة، وكان أبوبكر بن عمر رجلًا صالحًا ورعًا فجعل على مقدمته ابن عمه يوسف بن تاشفين اللمتوني... ففتح مدينة ماسة وتارودانت قاعدة بلاد السوس، وكان بها قوم من الرافضة يقال لهم البجلية».([11])

ليكون بالتالي جنوب المغرب الأقصى ومنطقة السوس ومدنه قد فتحت على يد جيش يوسف بن تاشفين، مما سيجعل أبا بكر بن عمر اللمتوني- القائد العام للقوات المرابطية- ومن خلفه الشيخ عبد الله

بن ياسين يقومان بتعيين ابن تاشفين واليًا على هذه المناطق المفتوحة، حيث «كان يوسف بن تاشفين مقدم جيش أبي بكر بن عمر الصنهاجي، وخرج من سجلماسة سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وكان أبوبكر بن عمر قد أتى سجلماسة في سنة ثلاث وخمسين وحاصرها، وقاتل أهلها أشد قتال وأخذها، ثم رتب عليها يوسف بن تاشفين وكان ما كان».[12]

ويتضح من هنا مدى القرابة التي كانت بين يوسف بن تاشفين وابن عمه وأميره أبي بكر بن عمر اللمتوني، الذي جعله واليًا على الجنوب المغربي، ثقةً في مهاراته القيادية التي تؤهله لولاية مناطق فُتحت حديثًا على يد المرابطين، وقد لخص ابن الأثير هذه الحوادث في قوله: «لما ملك أبو بكر بن عمر سجلماسة استعمل عليها يوسف بن تاشفين اللمتوني، وهو من بني عمه الأقربين، ورجع إلى الصحراء، فأحسن يوسف السيرة في الرعية، ولم يأخذ منهم سوى الزكاة، فأقام بالصحراء مدة، ثم عاد أبو بكر بن عمر إلى سجلماسة، فأقام بها سنة، والخطبة والأمر والنهي له، واستخلف عليها ابن أخيه أبا بكر بن إبراهيم بن عمر، وجهز مع يوسف ابن تاشفين جيشًا من المرابطين إلىالسوس ففتح على يديه».[13]

ويُجمع المؤرخون والباحثون على كون الأحداث التي تمتد في خمس سنوات (٤٤٨-٤٥٣هـ/ ١٠٥٦-١٠٦١م)، قد شكلت النقطة التاريخية لانطلاق يوسف بن تاشفين ودخوله في ساحة التاريخ من بابه الأشهر، باب الجهاد والفتوحات العسكرية، إذ إن خروج المرابطين من الصحراء نحو المغرب الأقصى ووضعهم لخطط افتتاح بلاد السوس عام ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، وانتداب الأمير أبو بكر لابن تاشفين ليكون قائد الجيش المرابطي قد أصبحت أول مناسبة تاريخية يذكر فيها اسم يوسف بن تاشفين.[14]

فكان ابن تاشفين أن تولى أمر السوس، فقاد مزيدًا من العمليات من أجل إخضاع القبائل في جزولة وماسة ومنطقة مصمودة، واستطاع أن يرد هجمات الزناتيين، ثم كانت إدارته حسنةً لهذه الأراضي المفتوحة؛ كل ذلك جعله محل ثقة من قبل الأمير أبو بكر والشيخ ابن ياسين، مما سيمهده بعد سنوات معدودة إلى تولي حكم دولة المرابطين، الذي وضع هو بنفسه الحجر الأساس في تشييدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تولي حكم الدولة الناشئة

استطاعت الجيوش المرابطية بعد السيطرة على منطقة السوس الاستمرار في التقدم نحو الشمال، فخاضت مزيدًا من المواجهات مع القبائل الزناتية المسيطرة على وسط المغرب الأقصى، ثم افتتحت جبهةً جديدة ضد إمارة بورغواطة أشهر القوى السياسية والطائفية المتواجدة في المغرب الأقصى، التي كانت ذات عقائد مختلطة ما بين الوثنية والإسلام، واستمرت في الوجود لقرابة ثلاثة قرون، وكانت تسيطر على منطقة تامسنا على الساحل الأطلسي، فكانت حرب المرابطين شرسةً مع الإمارة البورغواطية، حتى شاركت فيها جل قواتهم بما فيها قوات يوسف بن تاشفين، فاستطاع المرابطون أخيرًا القضاء على هذه الإمارة العتيدة، لكن بعد أن دفعوا ثمنًا باهظًا في هذا النصر؛ وهو فقدانهم للشيخ عبد الله بن ياسين في هذه الحرب.

فكان استشهاد زعيم حركة المرابطين عبد الله بن ياسين عام ٤٥١هـ/١٠٥٩م هو البداية الأولى في تحرك ابن تاشفين إلى رئاسة الدولة الناشئة، وخاصة بعد سيطرة المرابطين على مدينة أغمات([15])، فتم تتويج أبا بكر بن عمر اللمتوني بعدها قائدًا عامًا للقوات المرابطية، لكن مدة حكمه لم تستمر طويلًا، إذ سرعان ما اشتعل نزاع بين القبائل الصنهاجية في الصحراء، مما استدعى تدخل الأمير أبو بكر في هذا الخطب الجلل، الذي اندلع فجأةً بين قبائل باتت تشكل دعامةً لقوة المرابطين المتمددة في ربوع المغرب الأقصى.

فكان الأمر أن أخذ «الأمير أبوبكر بن عمر في الحركة إلى الصحراء، حسبما تقدم ذكره آنفًا، ولاه المغرب مكانه (أي ليوسف بن تاشفين) على صورة النيابة عنه، وقسم الجيش فترك له الثلث من لمتونة وانصرف بالثلثين معه داخلًا إلى الصحراء، وذلك في سنة ثلاث وستين وأربعمائة، فأقام بعده يوسف بن تاشفين مدبرًا للأمور، قائمًا بالملك».([16])

وهنا يظهر أن أبا بكر ترك ابن عمه يوسف بن تاشفين لينوب عنه في المغرب الأقصى، لما رأى فيه من قيادة محنكة، إضافة إلى كونه ذا مهارات عالية وشخصية فذة، مما جعله يوليه أعمال المغرب وأموره على شكل نائب، حتى إنه طلّق من أجل هذا زوجته زينب بنت إسحاق النفزاوي وتزوجها يوسف، فكان ذلك بالتزامن مع تحول المرابطين إلى دولة، وصار ابن تاشفين على رأسها، وعلى ذلك يقول ابن عذاري المراكشي:

«وكان يكاتب الأمير أبا بكر بكل ما يصنع، فيشكره على ذلك وأبو بكر بن عمر في الصحراء يحارب جدالة حتى أخذ ثأره منهم في خبر طويل، وتزوج يوسف بن تاشفين زينب النفزاوية في شهر شعبان المكرم من سنة ثلاث وستين بعد تمام عدتها ودخل بها وسرت به وسر بها وأخبرته بأنه يملك المغرب كله فبسطت آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموال الغزيرة، فأركب الرجال الكثير، وجمعت له القبائل أموالًا عظيمة، فجند الأجناد وأخذ في جمع الجيوش من البربر والاحتشاد... بنفسه وبتدبير زوجه زينب في كل يوم مع أمسه، حتى سلك أهل المغرب في قانون الضغط فتأتى من ملكه ما لم يتأت.»([17])

ويبدو أنه بعد أن تزوج يوسف من زينب النفزاوية التي كانت زوجة أحد أمراء مغراوة الزناتيين المنهزمين أمام المرابطين؛ قد زاد من نفوذه وعظم من شأنه بين رجاله، وصار هو الأمير الفعلي على المغرب لا سيما وأبو بكر قد طال غيابه في الصحراء، فما لبث يوسف أن تمسك بمقاليد حكم الدولة الناشئة وثبّت أركانها، فتضخّمت جيوشه وقويت إدارته بفعل سياسته الحكيمة والبارعة.

لكن ما لبث أن تمكن الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني من حل الخلاف الذي كان في الصحراء ورجع بجيشه إلى المغرب الأقصى، ليتفاجأ بالدولة القوية التي أسسها ابن عمه يوسف بن تاشفين، هذا الأخير الذي ما إن سمع بقدوم ابن عمه حتى أسرع لاستقباله في منتصف الطريق بين أغمات ومراكش، في منظر رائع واستعراض عسكري ينم عن الانضباط والطاعة والحالة الثابتة في الجند المرابطي، لتزداد ثقة وإعجاب أبي بكر بيوسف، فتفاءل بمستقبل دعوة المرابطين ودولتهم، وتم اللقاء بحضور أعيان الدولة والأمراء، ليشهدوا عن تنازل أبي بكر وتنحّيه عن أمر الحكم لصالح يوسف، وليقوم هذا الأخير بتوديعه منصرفًا إلى الصحراء([18]).

فهذا المشهد القليل نظيره في التاريخ ينم عن الأساس الدعوي والإصلاحي الذي قامت عليه دولة المرابطين ورجالها، فأبو بكر بن عمر تنازل بكل طواعية ورضًا عن الحكم لابن عمه يوسف بن تاشفين، الذي رآه رجل الدولة القوي ومؤسسها المستحق لحكمها، فمن خلال اللقاء بين الرجلين دار حوار بينهما يعد من أروع الحوارات التاريخية بين القادة المسلمين، الذي قال فيه أبو بكر : «إني قد وليتك هذا الأمر و إني مسؤول عنه، فاتق الله تعالى في المسلمين وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تضيّع من أمور رعيتك شيئا فإنك مسؤول عنه، والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك وهو خليفتي عليك وعليهم ثم ودعه و انصرف إلى الصحراء».([19])

فكان اللقاء الذي جمع بين يوسف بن تاشفين وأبو بكر بن عمر، لقاءً أخويًا شكّل نقطة إيجابية مضيئة في تاريخ المرابطين، فهو يعبر عن المستوى العالي الذي ارتقى إليه هؤلاء القوم من أدب التعامل وحفظ الحقوق والالتزام بالطاعة والعهود، ومن هذا المشهد الذي يجسد هذا الحدث العظيم، صار يوسف بن تاشفين أميرًا للمرابطين بصفة رسمية.

ويمتاز الأمير يوسف بالخصائص الأساسية التي امتاز بها الكثير من بناة الدولة الإسلامية، ورجالها الذين تولوا أمرها في أوقات الأزمات العصيبة التي ألمت بها على طول التاريخ، وأولى هذه الخصائص الإيمان العميق بالإسلام ثم النظرة الواسعة إلى العالم الإسلامي على أنه عالم واحد متماسك، ثم العدالة وهي من بين أجمل ما تحلى بها عظماء حكام المسلمين، وأخيرا النشاط الواسع والطموح إلى توسيع رواق الإسلام.([20])

أما عن أبي بكر فقد رجع إلى الصحراء واستمر في التوجه جنوبًاالينشر دين الإسلام في ربوع مناطق الغرب الأفريقي، وليمدّ من النفوذ المرابطي إلى هذه البلدان، حتى صار همه هو دخول بلاد السودان الغربي تحت لواء الإسلام والقضاء على الوثنية هناك، فتوفي هناك بعد جهاد مرير عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م، بعد أن تخلى عن حكم الدولة المرابطية ولم يعد يفكر فيه، وأورد صاحب كتاب (الحلل الموشية) متحدثًا عن الرسائل المتبادلة بين ابن تاشفين وأبي بكر عقب تخليه عن رئاسة الدولة المرابطية:

«وكتب إليه كتابا يعتذر فيه إليه، ويرغبه في قبول الهدية، ويقول له: كل ذلك قليل في حقك، فطابت نفس الأمير أبي بكر، وقال هذا خير كثير، ولم يخرج الملك من بيتنا، ولا زال عن أيدينا، فالحمد لله على ذلك، فناول إخوانه من تلك الخيرات، وانصرف إلى الصحراء، فأقام بها ثلاثة أعوام، والأمير يوسف ابن تاشفين يمده بالهدايا والتحف إلى أن قتله السودان المجاورون له في الصحراء».([21])

ورغم اختلاف المؤرخين حول سنة تولية يوسف بن تاشفين الحكم رسميًا ما بين عام ٤٦٤هـ/١٠٧٢م و٤٦٥هـ/١٠٧٣م، إلا أن الفرق لم يكن كبيرًا، حيث انطلقت دولة المرابطين نحو مزيد من التوسع والتمدد، ووفدت رسوم البيعة على الأمير يوسف من أعيان وزعماء القبائل، وصارت العدالة هي منطق الحكم المرابطي، إذ إنه «في سنة أربع وستين وأربعمائة وجه يوسف إلى أمراء الغرب و أشياخ القبائل من زناتة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه، فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال، ثم خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب، ويتفقد أحوال الرعية، وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم فيه، فصلح على يديه بذلك كثير من أمور الناس»([22]).

وهكذا كان ليوسف القوة والسلطان اللذين أخذهما بجهاده واجتهاده في القيادة العسكرية وفي السياسة والإدارة، وبصفاته وأخلاقه التي جعلت عبد الله بن ياسين يدرجه ضمن رجاله المقربين، وجعلت أبا بكر بن عمر اللمتوني يوليه على المغرب، بل ويتنازل له عن حكم الدولة المرابطية، ليبدأ بالتالي عهد جديد من تاريخ المرابطين، وهو عهد يوسف بن تاشفين الذي أرسى قواعد الحكم ووسع من سلطان الدولة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تأسيس مراكش

لا تقوم الدول إلا بقواعد تكون مصدرًا لقرارات زعمائها، تلك هي سُنّة التاريخ السياسي، وهكذا كان أمر مدينة مراكش بالنسبة لمؤسسها يوسف بن تاشفين، الذي أنشأها غداة توليه حكم دولة المرابطين، فمع استقرار الدولة المرابطية وتوسعها عمل أميرها ابن تاشفين على بناء قاعدة حكمه «تكون حصنًا له ولأرباب دولته، فاشترى موضع مراكش ممن كان يملكه من المصامدة.. ثم نزل بالموضع المذكور بخيام الشَّعر وبنى مسجدًا لصلاته وقصبةً صغيرة لاختزان ماله، ولم يبني على ذلك سورًا... فاختطها يوسف وبنى بها القصور والمساكن الأنيقة وهي في مرج فسيح وحولها جبال على فراسخ منها بالقرب منها جبل لايزال عليه الثلج وهو الذي يعدل مزاجها».([23])

وقد وصف الرّحالة صاحب كتاب (الاستبصار) مراكش بكونها «مدينة عظيمة في بسيط الأرض أسسها يوسف بن تاشفين سنة ٤٥٩هـ وأول ما بنى فيها دار الأمة»،([24]) وأضاف عن موقعها الجغرافي قائلًا: «وعلى ٣ أميال منها وادي تنسيفت، منبعه من بلد دمنات، يصب فيه وادي وريكة ووادي نفيس وأودية كثيرة ومصبه في ساحل رباط جوز وبداخله الشابل الكثير الطيب».([25])

فكان موضعها في وسط المغرب الأقصى بين الأراضي ذات المناخ شبه الصحراوي والمحيط الأطلنطي، كما كان موقعها استراتيجيًا بالنسبة لدولة تنمو في البلاد المغربية، وذلك لكي تكون أقرب إلى الصحراء وأقاليم الشمال المتحضرة([26])، فبنى مراكش كاسم لهذه المدينة، وقد كانت المدينة قبل تأسيسها أرضًا خالية تقريبًا من السكان، وهي تقع بين جبل جيلز ولكدية العبيد، وبين أغمات وجبال الأطلس الكبير، وكلمة مراكش مركبة من كلمتين إحداهما عربية وهي:(مر) والثانية أمازيغية وهي:(كش) وتعني: «امشي مسرعًا» أو «انطلق بسرعة»، وذلك لكونها مأوىً للصوص وقطاع الطرق الذين يتعرضون للقوافل، فيخاطب الناس بعضهم البعض «بمراكش» أي امشي مسرعًا، وكانت أرضية مراكش لبعض أهل أغمات، فاشتراها يوسف بن تاشفين وبنى مرافقها ودروبها بحجر من الجبل.([27])

ويذكر المؤرخ عبد الواحد المراكشي سببًا غريبًا آخر لتسمية مراكش بهذاالاسم قائلًا: «فتخيروها دار ملكهم لتوسطها البلاد، وكانت إذا نزلوها غبطة لا عمران بها، وإنما سمّيت بعبد أسود كان يستوطنها يخيف الطريق اسمه مراكش فاستوطنها البربر كما ذكرناه»([28])، فأيًا كانت دوافع اختيار هذا الاسم فلا شك أن لدلالته اللغوية معنًا أمازيغيًا منطقيًا حسب أعراف ذلك العصر، وإن اختلفت تأويلات المؤرخين بشأنه.

فقبل هذا كانت مدينة أغمات هي القاعدة الأولى للجيوش المرابطية في عهد عبد الله بن ياسين وأبي بكر بن عمر اللمتوني، لكن تضخم القوات المرابطية بالتوازي مع الشروع في تأسيس الدولة قد جعل يوسف بن تاشفين يقوم بإنشاء حاضرة مراكش، الذي كان موقعها يتوسط بلاد المغرب الأقصى، فجعلها عاصمة لدولة المرابطين في موقع استراتيجي ومركزي، ويُضاف إلى ذلك كونها رباط الدولة المرابطية القائمة على الجهاد ونشر الإسلام، فصارت مركزًا للجيوش الصحراوية الذي ضاقت بهم أغمات؛ الأمر الذي دفع يوسف إلى قيامه بشراء موضع بأرض مراكش بمبلغ ينحصر في ألف

درهم، وترجع أسباب اختياره للموقع إلى قربه من المنابع المائية، وبجوار مدينة أغمات التاريخية، كما أن مراكش تجمع بين مناخ الجبل والبحر والصحراء.([29])

ويقع اختلاف بين المؤرخين في سنة بناء هذه المدينة، إذ يذهب ابن خلدون إلى عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م، ويقول في معرض حديثه عن تأسيس مراكش وتصميمها : «واختط يوسف مدينة مراكش سنة أربع وخمسين وأربعمائة ونزلها بالخيام وأدار سورها على مسجد وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه، وكمل تشييدها وأسوارها علي ابنه من بعده سنة ست وعشرين وخمسمائة. وجعل يوسف مدينة مراكش لنزله ولعسكره وللتمرس بقبائل المصامدة المصيفة بمواطنهم بها في جبل درن».([30])

أما عن الذهبي فيذهب بقوله إلى أن تشييد مراكش كان في سنة ٤٦٥هـ/١٠٧٣م، التي فيها اشترى ابن تاشفين أرضها بماله الذي خرج به من صحراء السودان([31])، والقول الراجح عندي هو عام ٤٦٥هـ، الذي جاء بعد تولي يوسف بن تاشفين الحكم المرابطي بصفة رسمية بعد تنازل أبي بكر، وإن كان من الممكن جدًا ليوسف أن يبدأ ببناء المدينة لحظة مغادرة أبي بكر إلى الصحراء، وتنصيبه ليوسف نائبًا له عام ٤٥٤هـ/١٠٦٢م كما عند ابن خلدون.

ومهما يكن من أمر، فإن الثابت في التاريخ هو كون يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش، أحد أكبر حواضر العالم الإسلامي وأهم المدن التاريخية للحضارة الإسلامية، وعلى اسم مراكش ستُعرف جغرافية المغرب الأقصى وستُشتهر به، لتصير المدينة عاصمةً لدولة المرابطين كبرى الدول الإسلامية، وستتخذها دول أخرى في تاريخ المغرب عاصمةً لها، كما كان مع دولة الموحدين الذين سيرثون المرابطين بعد سقوطهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

دخول فاس

واستكمال وحدة المغرب

لم تكن الفتوحات المرابطية في المغرب قد توقفت لحظة وفاة الشيخ عبد الله بن ياسين أو في وقت مغادرة الأمير أبي بكر بن عمر إلى الصحراء، ففي كلتا الحالتين كان يوسف بن تاشفين هو من يشرف على عمليات التوسع المرابطي في أراضي المغرب الأقصى، وقد زادت مهمته هذه بعد استلامه الحكم بشكل رسمي عام ٤٦٥هـ/١٠٧٣م، حتى إن تشييده لمراكش لم يبعد نظره عن متابعته للفتح.

فتح مدينة فاس:

فمنذ أن تولى ابن تاشفين أمر المغرب وهو يسعى إلى مواصلة الفتوحات باتجاه الشمال، فبعد القضاء على إمارة بورغواطة في منطقة تامسنا، اتجهت القوات المرابطية صوب مدينة فاس (حاضرة المغرب الأقصى التقليدية) من أجل تحريرها من حاكمها معنصر بن المعز المغراوي، التي كانت قاعدةً لإمارة مغراوة الزناتيةالتي تبسط نفوذها في معظم الأراضي بالمغرب الأقصى، فبدأ يوسف عمليات الفتح مباشرةً بعد أن ولاه الأمير أبو بكر مقاليد الحكم، وسأدع هنا ابن خلدون يتحدث عن بدايات المواجهات بين المرابطين والمغراويين حول فاس قائلًا:

«فزحف في عساكره المرابطين إلى فاس وجمع إليه معنصر ففضى جموعه، وارتحل يوسف إلى فاس وتقرى منازلها وافتتح جميع الحصون المحيطة بها، وأقام عليها أيامًا قلائل، وظفر بعاملها بكار بن إبراهيم فقتله. ثم نهض إلى مغراوة وافتتحها وقتل من كان بها من أولاد ونودين المغراوي، ورجع على فاس فافتتحها صلحًا سنة خمس وخمسين وأربعمائة، ثم رجع إلى غمارة ونازلهم وفتح كثيرًا من بلادهم وأشرف على طنجة... ثم رجع إلى منازلة قلعة فازاز، وخالفه معنصر إلى فاس فاستولى عليها وقتل عاملها».([32])

ويبدو من هذا الكلام أن معارك كر وفر قد اندلعت بين القوات المرابطية وجيوش مغراوة، الذين لم يتمركزوا في فاس وحدها؛ بل في مجموع المناطق المجاورة لها، لذا كان الأمر تحديًا بالنسبة للأمير يوسف الذي انطلق من مراكش وفي طريقه إلى فاس التي كان الزناتيون متحصنين بها، فاصطدم بقبائل عديدة في مدينة صدينة، فتمكن المرابطون من سحقهم والمتابعة نحو فاس ثم صفرو، حيث قضى على أولاد مسعود المغراوي فرجع إلى مدينة فاس، فحاصرها ودخلها سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م. ([33])

وقد أطبق يوسف وقواته على مدينة فاس قبل فتحها حصارًا شديدًا، وعلى أمرائها العنيدين الذين قاتلهم «قتالا شديدا سبعة أيام، وفي الثامن دخلها عنوة، مات فيها من أهل فاس بشر كثير، فسلبت ديارهم ثم عفا عنهم وانحصر ابنا حمامة الفتوح ودوناس في قصرهما، ثم طلبا الأمان فعفي عنهما في نفسيهما، فكتب بفتح فاس وبأخبار الفتوح بن حمامة وأخيه إلى الأمير يوسف بن تاشفين فأمر بتوجيههما حيث شاءا فاستوصى الفتوح مغيلة، واستولت لمتونة على مدينة فاس حرسها الله».([34])

وقد كان هذا هو الفتح الأول؛ فلمدينة فاس فتحين اثنين؛ وبعبارة أخرى افتتحت وحُررت مرتين من طرف يوسف بن تاشفين، وتحدث مؤرخ المدينة ابن أبي زرع الفاسي عن الفتح الأول فقال: «وارتحل إلى مدينة فاس، فنازلها بعد أن فتح جميع أحوازها، وذلك في آخر سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وأقام عليها أياما، فظفر بعاملها بكار بن ابراهيم فقتله وارتحل عنها إلى مدينة صفرو، فدخلها من يومه عنوة بالسيف وقتل أربابها أولاد مسعود المغراوي المالكين لها والقائمين بأمرها ثم رجع إلى فاس فحاصرها حتى فتحها وهو الفتح الأول»([35])، ثم تابع متحدثًا عن الفتح الثاني: «وفي سنة اثنين وستين أقبل إلى مدينة فاس فنزل عليها بجميع جيوشه وشدد عليها بالحصار حتى دخلها عنوة بالسيف... وكان دخول يوسف إياها يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة إثنين وستين وأربعمائة (١٨ مارس ١٠٧٠ م)، فلما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس حصّنها وثقفها وأمر بهدم الأسوار التي كانت بها، بين المدينتين: عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردهما مصرًا واحدة»([36]).

فالمدينة قد خرجت من يد يوسف بعد الفتح الأول لها، وذلك لعناد المغراويين الذين تمسكوا بها، على الرغم مما شاهدوه من قوة المرابطين الصاعدة التي تتوسع في أنحاء المغرب، حتى إن قلعة فازاز وهي الحصن الحصين للمدينة قد حاصرها ابن تاشفين لمدة تسع سنوات، وقضى على الزناتيين بعد أن أخذها منهم.([37])

وكما أشار ابن أبي زرع فقد كانت المدينة بعد الفتح الأخير لها منقسمةً إلى قسمين، وهو الشكل الذي كانت عليه منذ أن بناها إدريس الثاني إمام الأدارسة، فأقدم ابن تاشفين بعد الاستيلاء عليها بإصلاح مدينة فاس وجعلها حاضرةً واحدة بعد أن كانت مقسمة، وأدار عليها أسوار حصينة وأكثر فيها من بناء المساجد ([38]).

وبعد فتح مدينة فاس التي كانت بوابةً للشمال المغربي؛ انفتح أمام الأمير يوسف طريق غزو ماتبقى من أراضي المغرب الأقصى، ليكون بذلك قد قضى على إمارة مغراوة صاحبة السلطان الأكبر في البلاد، ثم إمارة بني يفرن المجاورة لها، التي تقع إلى الشمال منها، وذلك بعد سقوط إمارة بني خزرون بسجلماسة في يد المرابطين في وقت سابق عن هذا، ليبقى أقصى شمال المغرب وبلاد الريف المناطق الوحيدة الخارجة عن سلطان يوسف بن تاشفين.

تحرير الشمال المغربي:

فكان انتهاء المرابطين من فتح مدينة فاس قد جعلهم ينتشرون في شمال المغرب ويضمون الأقاليم المتبقية إلى سلطانهم، ليتوجه يوسف بن تاشفين إلى مدينة نكور عاصمة إمارة بني صالح- والتي كانت من أقدم الإمارات الموزعة بالمغرب الأقصى- في بلاد الريف آخر معاقل الزناتيين، فدمرتها الجيوش المرابطية أثناء زحفها على الريف متوجهةً إلى المغرب الأوسط، فاستطاع المرابطون غزو أولى مدنه من ناحية الغرب وهي مدينة تلمسان في عام ٤٦٨هـ/١٠٧٦م، بحسب ما يذكر المراكشي، حيث يقول:

«وفي سنة ثمان وستين وأربعمائة جهز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عسكرًا ضخمًا وقدم عليه ابن عمه مزدلي اللمتوني وبعثه إلى مدينة تلمسان وكان أميرها يومئذ العباس بن يحيى أمير زناتة، فكتب أمير المسلمين إليه كتابا بالعفو عنه إن نزل بدون قتال... فخرج من تلمسان فأنعم عليه الأمير

مزدلي بمطلبه ووافقه في مذهبه»([39])، وكان قبل ذلك قد حرر مدينة مكناسة المجاورة لفاس، حيث يتابع المراكشي متحدثًا في نفس السياق عن مجمل هذه الأحداث:

«وفيها بعث يوسف بن تاشفين عسكرًا إلى الغرب قود عليه يطي بن إسماعيل ولما وصل إلى وادي بهت بعث رقاصًا إلى أمير مكناسة الخير بن خزر الزناتي بأنه قد عفا عنه، ...ودخل مكناسة وخرج الخير منها أميرها ومن كان معه من زناتة إلى موضع القناطير، وولي مكناسة بعد الخير بن خزر الزناتي الأفضل اللمتوني، ورحل ابن إسماعيل بعسكره مع الخير المذكور إلى مراكش، وأنعم عليه الأمير يوسف بكل ما أراد».([40])

وبهذا يكون ابن تاشفين والمرابطون قد قضوا على فلول القوات الزناتية التي بقيت في مكناسة، ثم الريف وتلمسان بالمغرب الأوسط، واستطاع المرابطون السيطرة على الجزء الغربي من المغرب الأوسط، حيث وصلت جيوش يوسف إلى وهران ومدينة تنس وجبال ونشريس ومدينة الجزائر في حدود بجاية، وذلك بعد أن تم فتح مدينة وجدة و»اختطاطه لمدينة تاكرارت بمكان محلته «.([41])

فلم يبق لابن تاشفين سوى مدينتي سبتة وطنجة الواقعتين في أقصى شمال غرب المغرب الأقصى، والمرتبطتان تاريخيًا وجغرافيًا بالأندلس، لكن في هذا الوقت بالتحديد يبدو وكأنهما كانتا على نوع من العلاقة مع البرغواطيين الذين قضى المرابطون على كيانهم مسبقًا، حيث كانتا تحت حكم رجل يدعى الحاجب سكوت البرغواطي.

وقد جاءت ظروف تحريرهما بإرسال المعتمد بن عباد نجدة أهل الأندلس، واشترط عليه يوسف ضرورة إخضاع كل من سبتة وطنجة، اللتين ترتبطان جغرافيًا ومجاليًا بشبه جزيرة الأندلس، وعمل المعتمد على إرسال أسطول بحري ساعد به يوسف على فتح المدينتين، تحت قيادة صالح بن عمران في جيش بلغ عدده اثنا عشر ألف من المرابطين، وعشرين ألف من القبائل، فاستولوا أولًا على طنجة، وقتلوا الحاجب بعد رفضه الاستسلام سنة أربعمائة وسبعون هجرية.([42])

وكان هناك فارق زمني بين فتح المدينتين، إذ فُتحت مدينة طنجة قبل مدينة سبتة بحوالي سبع سنين، ففي عام ٤٧٠هـ/١٠٧٨م استطاع المرابطون الدخول إلى طنجة والقضاء على صاحبها الحاجب سكوت البرغواطي، ثم حوصرت مدينة سبتة مدةً طويلة، في الوقت الذي قامت فيه بقية القوات المرابطية بضم الريف وغرب المغرب الأوسط.

فعاد يوسف إلى مراكش سنة ٤٧٥هـ/١٠٨٣م، بعد جهاد استمر لقرابة الثلاثين عامًا، ليكون بذلك قد وحد المغرب الأقصى، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التمكين الفعلية، فتوجه نحو سبتة المعقل الوحيد الخارج عن سيطرة المرابطين، وقد كان يحكمها ضياء الدولة بن الحاجب سكوت، واستطاع الأمير يوسف فتحها عام ٤٧٧هـ/١٠٨٥م، بعد القضاء على ضياء الدولة.([43])

وفي هذا يظهر ما كان للأندلسيين من دور في استكمال يوسف لما تبقى من عملية توحيد المغرب، بحيث أرسل ابن عباد أمير اشبيلية سفنا بحرية لمساندة المرابطين في فتح سبتة، وقد جاءت بعد أن استنجد المعتمد بيوسف من النصارى الذين يهددون المسلمين في بلاد الأندلس، واشترط عليه ابن تاشفين ضمَّ سبتة، التي كانت بطبيعة الحال واصلة للأندلس.

ومن هنا كانت بداية الرابطة التاريخية بين يوسف بن تاشفين وبلاد الأندلس، ذات الظروف العصيبة آنذاك، إذ ما إن انتهى يوسف من توحيد بلاد المغرب حتى قفزت مشكلة الأندلس أمامه، فكان عليه أن يستكمل طريقه نحو الشمال قاطعًا البحر.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

أمير المغرب ورجل الدولة القوي

وبهذا صار يوسف بن تاشفين الأمير الأقوى لبلاد المغرب، بعد أن أمضى حوالي الثلاثين عامًا في الجهاد والكفاح في سبيل توحيد أراضي المغرب الأقصى، منذ أن صاحب شيخه عبد الله بن ياسين عابرًا الصحراء باتجاه الشمال، ثم نجاحه كقائد للجيش المرابطي في السيطرة على منطقة السوس في الجنوب المغربي، ثم أخيرًا بنيله ثقة الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني في جعله واليًا على المغرب ثم حاكمًا عامًا للدولة المرابطية، التي وسعها حتى شملت مجموع أقاليم المغرب الأقصى والجزء الغربي من المغرب الأوسط.

فهو في النهاية رجل تدرج في مراتب الحياة الاجتماعية والسياسية، من تلميذ ابن ياسين إلى قائد من قواد الجيش المرابطي الغازي، ثم إلى أمير للمناطق المفتوحة في جنوب المغرب الأقصى، وأخيرًا إلى حاكم لدولة المرابطين التي كان هو مؤسسها الفعلي، الذي بنى عاصمتها مراكش وقضى على أشد خصومه الزناتيين والبرغواطيين، ثم فتح فاس وحرر الشمال المغربي، ليتوحد مجموع المغرب الأقصى على يده ولأول مرة في التاريخ.

وعلى هذا أصبح يوسف بن تاشفين هو الرجل الذي قام بالدور الأساسي في إنشاء المغرب الأقصى وإعطائه حدوده الطبيعية التي ثبت عليها في التاريخ(44)، فكان أهم أثر خلَّفه المرابطون في مغرب النصف الثاني من القرن الخامس للهجري/ الحادي عشر الميلادي هو إزالة المذاهب والنحل البعيدة عن الإسلام التي حرفت العقيدة الإسلامية في البلاد، وقد أضاف إليها تسلط القبائل الزناتية إفرازًا لتشرذم وتمزق سياسي أنهاه ابن تاشفين ودولته بحملته الكبرى التي ضم فيها هذه البلاد.

فبالإضافة إلى التوحيد السياسي الذي حققه الأمير يوسف للمغرب الأقصى؛ استطاع المرابطون أيضا ترسيخ الوحدة العقائدية والمذهبية بعد أن كان المغرب يعج بطوائف وفرق باطنية وزندقية ووثنية، ومن بقايا الخوارج، من الشيعة البجليين في سوس إلى بقايا الوثنية في الأطلس الكبير، ومن كيان برغواطة المارق بالجملة إلى الجور القهري لقبائل زناتة التي لا تعرف من الدين إلا اسمه.

وهكذا أعاد المرابطون إلى بلاد المغرب دين الإسلام الصحيح كما جاء به الفاتحون الأوائل، ومذهبه المالكي الفقهي الذي كان السائد فيه قبل أن تسقط دولة الأدارسة على يد الفاطميين العبيديين الشيعة، وما تلاه من دخول المغرب في نفق مظلم سادت فيه القلاقل والفوضى والفراغ السياسي والحضاري، استغلته الطوائف والنحل الهدامة لتبرز وتسيطر وتحيي مذاهبها.

فاستطاع يوسف بن تاشفين تحقيق طموح شيخه ومعلمه عبد الله بن ياسين الجزولي، فتمكن من إنشاء دولة قوية تقوم على الإسلام ومنهاج السنة والجماعة، بعد قضائه على المذاهب المنحرفة وإزالة المظالم المنتشرة، من معركة الواحات ٤٤٨هـ/١٠٥٦م إلى فتح مدينة سبتة ٤٧٧هـ/١٠٨٥م، التي لم يكن بفتحها توحيد المغرب الأقصى فقط؛ بل وفتحًا لباب آخر كان ينتظر ابن تاشفين وهو باب المسألة الأندلسية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني

التوجه نحو الأندلس

تمهيد

الأندلس كانت المحطة الثانية في تجربة يوسف بن تاشفين التاريخية، فبالرغم من كونها تأتي في الترتيب الثاني من ناحية الزمن التاريخي في سيرة الأمير يوسف؛ إلا أنها كانت الأشهر وذلك لكونها قد فتحت عهدًا جديدًا في تاريخ الأندلس الإسلامي، إذ إن دخول المرابطين إلى الأندلس قد جاء في منتصف عمرها التاريخي الممتد على ثمانية قرون، فأنهى المرابطون بذلك فترة ملوك الطوائف التي أعقبت سقوط الدولة الأموية في البلاد.

وبذلك يكون ابن تاشفين قد أسس لفترة جديدة في التاريخ الأندلسي وهي المعروفة بعهد المرابطين، وذلك بإزالة حكم ملوك الطوائف وإنقاذ البلاد من السقوط الوشيك بيد النصارى الصليبيين، وبموازاة مع هذا فإن الأندلس كانت استكمالًا لجهاد الأمير يوسف الذي ابتدأه من المغرب الذي سيشغله حتى وفاته عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م، تاركًا الأندلس في وحدة مع بلاد المغرب تحت لواء دولة المرابطين الكبرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حال الأندلس في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي

لم تكن الأندلس أفضل حالًا من الوضع في بلاد المغرب قبيل الفتح المرابطي؛ بل إن الأندلس كانت في حالة أسوأ، حيث التمزق الطائفي والتشرذم المناطقي، ثم إن النزاع السياسي بين المسلمين قد بلغ مداه، في وقت اتحدت فيه الممالك النصرانية في الشمال من أجل حرب صليبية شاملة للقضاء على التواجد الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية.

فقد بدأت مأساة الأندلس منذ أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، بعد وفاة حاكمها القوي الحاجب المنصور بن أبي عامر الذي كان وصيًا على الخلافة الأموية في قرطبة، فتولى ابنه عبد الملك ثم أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجول، الذي حاول القضاء على خلافة بني أمية والانفراد المطلق بالحكم، فأشعل بذلك نار الفتنة التي على إثرها ستسقط الدولة العامرية وتنحل الخلافة الأموية، وتتمزق الأندلس إلى ما يقارب ٢٢ دويلة، وهي المعروفة تاريخيًا بملوك الطوائف.

فقد سقطت الخلافة الأموية عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م في خضم نزاع مستمر بين دويلات الطوائف التي يتوسع كل ملك فيها على حساب جاره، فتمكن الأقوياء منهم من الاستيلاء على ممتلكات الضعفاء، حتى لم يتبق إلا ممالك معدودة وذلك قبل التدخل المرابطي، فكان من أشهرها: بنو عباد في إشبيلية وقرطبة، والزيريون بغرناطة، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو هود في سرقسطة، ثم العامريون في إمارة بلنسية، وبنو الأفطس في بطليوس، وكذا الحموديون بمالقة.وفي المقابل في الجهة الشمالية كانت الممالك النصرانية قد بدأت بالاتحاد والتوافق، فكان هناك قشتالة وليون وأراغون، وقد رأوا في انقسام المسلمين على أنفسهم فرصةً ذهبية لبدأ «حرب استردادية» (Reconquista)([45]) جديدة، وذلك بمباركة صليبية من البابا في روما، فاستطاعوا بعد حرب ضد دول الطوائف الضعيفة التمدد إلى الجنوب، والاستيلاء على ما يقارب النصف الشمالي من جغرافية شبه الجزيرة الأيبيرية، حتى خاف ملوك الطوائف على مُلكهم فقرروا تقديم الجزية للنصارى.

الاستنجاد بالمرابطين:

أدرك المسلمون في الأندلس أن الضغط الصليبي للقوى المسيحية لن يتوقف عند هذا الحد؛ بل سيسعى النصارى إلى اجتياح الأندلس الإسلامية وطرد المسلمين منها بالكامل، لا سيما بعد أن أعلن ألفونسو السادس ملك قشتالة نيته لاكتساح شبه الجزيرة الأندلسية والقضاء على الإسلام فيها، فتحرك العلماء وبعض الأمراء فتداولوا مسألة الاستنجاد بالمرابطين- القوة الصاعدة في بلاد المغرب-، الذين كانوا يحرزون تقدمًا ونصرًا تلوى الآخر تحت قيادة يوسف بن تاشفين.

فقد رأينا آنفًا كيف سعى المعتمد بن عباد حاكم إشبيلية وقرطبة إلى التواصل مع ابن تاشفين، بعد اقترابه من السيطرة التامة على المغرب الأقصى ومحاصرته لمدينة سبتة، وكان ذلك عام ٤٧٧هـ/ ١٠٨٥م، حيث كان المعتمد من كبار ملوك الطوائف المسيطرين على الجنوب الأندلسي، وقد خشي

على سلطانه من القشتاليين، فساعد الأمير يوسف على فتح سبتة مقابل تقديم هذا الأخير العون له في الأندلس المهددة.

على أن هناك توجس لأغلب ملوك الطوائف من المرابطين وخوفهم من امتدادهم إلى الأندلس، كما يخافون من اجتياح النصارى لممالكهم؛ إلا أن الرأي العام الأندلسي استقر على الاستعانة بدولة المرابطين وأميرها يوسف بن تاشفين، وكان ذلك بعد حدوث كارثة سقوط مدينة طليطلة بيد المسيحيين عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

معركة الزلاقة الكبرى.. سقوط طليطلة والعبور الأول:

طليطلة التي كانت إحدى أكبر المدن الأندلسية في وسط البلاد، التي كانت مركزًا لأحد أهم ممالك الطوائف وكانت بيد ذي نون، الذين كانوا في صراع مع باقي ملوك الطوائف، ويستعينون على ذلك بألفونسو السادس الملك القشتالي، كمايقدمون له الجزية لقاء كف عدوانه عنهم؛ إلا أن ألفونسو هذا كان يخطط لاحتلال المدينة وإخراجها من يد المسلمين، وقبل كل هذا كان لطليطلة رمزية دينية عند المسيحيين، وكانت فيما مضى عاصمةً للقوط قبل الفتح الإسلامي للأندلس.

فصار القشتاليون نحو حصار مدينة طليطلة، ويروي ابن الأثير عن هذا في حوادث سنة ٤٧٨هـ بقوله: «في هذه السنة استولى الفرنج، لعنهم الله، على مدينة طليطلة منبلاد الأندلس، وأخذوها من المسلمين، وهي من أكبر البلاد وأحصنها وسبب ذلك أن الأذفونش، ملكالفرنج بالأندلس، كان قد قوي شأنه، وعظم ملكه، وكثرت عساكره، منذ تفرقت بلاد الأندلس، وصار كل بلد بيد ملك، فصاروا مثل ملوك الطوائف، فحينئذ طمع الفرنج فيهم، وأخذوا كثيرا من ثغورهم... وسار إلى مدينة طليطلة فحاصرها سبعسنين، وأخذها منالقادر، فازداد قوة إلى قوته» ([46]).

وقد كان سقوط طليطلة حدثًا مهولًا تأثر به المسلمون، وتفجرت في الأندلس إستثارة الشعراء للتحريض على الجهاد والتحذير من تفاقم الخطر الصليبي لألفونسو وجنوده، الساعون للقضاء على المسلمين، واجتمع أمراء الأندلس لأول مرة في كلمة مفادها وضع حد للنصارى، لكن قواتهم لا تكفي لتحقيق هذا الغرض، فقد كانت جل الأموال التي يغرّمون بها الأهالي تصرف في ملذاتهم وفجورهم ولم تستثمر في بناء قواهم العسكرية، فاتفقوا بعد ذلك على الاستنجاد بالمرابطين وقائدهم يوسف بن تاشفين الذي اشتهر وذاع صيته بالمغرب([47]).

فخرج لقاء ملوك الطوائف هذا إلى ضرورة استدعاء المرابطين رغم تردد بعضهم، لكن أمام إلحاح العلماء والضغط الشعبي من طرف أهالي الأندلس؛ قرروا أخيرًا الاتصال بيوسف بن تاشفين، الذي لم يتردد لحظةً واحدة في تلبية الدعوة إلى جهاد النصارى المتسلطين على رقاب المسلمين بالديار الأندلسية.

ويذكر بعض المؤرخين المعاصرين أن المعتمد بن عباد قد عبر إلى ابن تاشفين بنفسه، ليؤكد له الصلة بين الطرفين التي قد انطلقت قبل هذا، فيورد عبد الواحد المراكشي بعضًا من الكلام الذي دار بين الأمير يوسف والمعتمد حول المسألة الأندلسية وما نتج عنه قائلًا: «ولما كانت سنة أربعمائة وتسعة وسبعين جاز المعتمد على الله البحر قاصدا مدينة مراكش إلى يوسف بن تاشفين، مستنصرًا به على الروم، فلقيه يوسف المذكور أحسن لقاء وأنزله أكرم نزل وسأله عن حاجته، فذكر أنه يريد غزو الروم. وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيل ورجال ليستعين بهم في حربه، فأسرع أمير المسلمين المذكور إجابته إلى ما دعاه إليه، وقال له: أنا أول المنتدبين لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا نفسي». ([48])

فكانت استجابة ابن تاشفين للنداء الأندلسي عن حُرقة وغيرة على الدين وأهله، فبدأ المرابطون بالاستعدادات من أجل الجهاد ومواجهة القوى النصرانية واستعادة كرامة المسلمين، فأخذ الأمير يوسف على الفور إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها نحو الشاطئ الأندلسي، ([49]) وكان هذا بالتوازي مع توافد الفقهاء الأندلسيين عليه، فرحب بهم واعتبر الأمر فرصة لخدمة الدين ومد دولته، فعبر إلى الأندلس بجيش ضخم أواسط عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م.([50])

انطلق يوسف بن تاشفين مع جيشه من عاصمته مراكش نحو مدينة سبتة، التي تشكل نقطة العبور نحو الأندلس فيما عُرف في المصادر التاريخية بالجواز الأول، أي العبور الأول للأمير يوسف نحو شبه جزيرة أيبيريا، وفي أثناء عبوره مضيق جبل طارق عبر البحر الأبيض المتوسط صادفته عاصفة بحرية هوجاء، فلما كان على متن السفينة و»استقر على ظهرها رفع يديه ودعا الله تعالى وقال في دعائه: (اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهل علي جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعبه علي حتى لا أجوزه) فسهل الله عليه الجواز في أسرع ما يكون، فكان جوازه في يوم الخميس عند الزوال في منتصف ربيع الأول سنة تسع وسبعين وأربعمئة (٣٠ يونيو ١٠٨٦م)»([51]).

فيسرت الأقدار الإلهية لأمير المرابطين الجواز والعبور نحو الأراضي الأندلسية، التي علق أهلها الآمال على ابن تاشفين، فكان أن «نزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته، وأظهر من بره وإكرامه فوق ما كان يظنه أمير المسلمين، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يوسف عند ملك، فكان هذا أول ما أوقع في نفس يوسف التشوق إلى مملكة جزيرة الأندلس»([52]).

كما سارع بعض أمراء الطوائف نحو استقبال الأمير يوسف مع الحذر منه، وذلك في مدينة إشبيلية التي مكث فيها، وقد كانت الفرحة قد عمّت الأندلسيين من العلماء والوجهاء والعامة نتيجة قدوم ابن تاشفين، ومن جهة أخرى تأهب المسيحيون للأخبار المقلقة التي سمعوها عن قدوم جيوش مغربية لإعانة أهل الأندلس، فما كان من الممالك النصرانية سوى حشد قواتها لملاقاة يوسف بن تاشفين في إحدى أكبر المعارك التاريخية: معركة الزلاقة.

موقعة الزلاقة:

بعد وصول يوسف بن تاشفين مع جيشه إلى الأندلس بدأ على الفور الاستعداد لملاقاة النصارى، فانضمت إليه قوات بعض ملوك الطوائف، وفي الجانب الآخر انطلقت الحشود المسيحية من أراغون ونافار بل وحتى من الغرب الأوروبي وبلاد الفرنجة ملبيةً نداء الملك القشتالي ألفونسو السادس، الذي تسميه المصادر العربية بالأدفونش، فنزل «الأمير يوسف بموضع يعرف بالزلاقة من أحواز بطليوس، وتقدم المعتمد وأمراء الأندلس فنزلوا بجهة أخرى بينهما ربوة حاجزة ترهيبا للعدو وتخويفا له، وبين الفريقين وعسكر الروم نهر بطليوس... فأقاموا ثلاثة أيام والرسل تختلف بينهم إلى أن اتفق رأيهم أن تكون الملاقاة بينهم يوم الاثنين الرابع عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة». ([53])

فكان المشهد هكذا قبيل المعركة، حيث عسكر الجيشان المتحاربان على مقربة من بطليوس، وبات لا يفصل بينهما سوى النهر، وعلى مدى ثلاثة أيام والرسل تتجاوب بينهما، فأرسل يوسف إلى ألفونسو

كتابًا يخيره باعتناق الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، وهي رسالة من مسلم قائد تذكرنا بالفاتحين الأوائل، ورد عليه ألفونسو برسالة طويلة يملؤها الغضب والوعيد، فلما قرأها ابن تاشفين قال: هذا الكتاب طويل، فقلبه فكتب على ظهره «الذي يكون ستراه»، فارتاع له ألفونسو وعلم أنه ابتلي برجل لا طاقة له به.([54])

وكان الاتفاق بين ابن تاشفين وألفونسو في تحديد يوم الاثنين كلقاء للمعركة، لكن الأخير لم يحترم هذا الاتفاق كعادة ملوك النصارى؛ إذ كانت خطته مبنية على الغدر والخيانة، فالتقى الجيشان في سهل الزلاقة واشتبك الفريقان في معركة رهيبة ملحمية، حيث هاجمت فيه مقدمة النصارى وقائدهم المدعو البارهانس، على مقدمة المسلمين بقيادة المعتمد وابن عائشة (أحد قواد الجيش المرابطي)، وثبت المسلمون بصعوبة وصبر شديد، تحت ضغط الجيش النصراني الكثيف والمتفوق عدديا على القوات الإسلامية.

وقد كانت خطة المعركة كما أقرها الأمير ابن تاشفين مع قادته، ومع المعتمد وابن الأفطس أمير بطليوس، هو الاحتفاظ بجيش احتياطي لكي يباغت به قوات العدو ويُوقِعها في كمين محكم، وكانت الخطة التي ستُحسَم بها المعركة، فكان الأمر أن تقدم المعتمد صفوف الجيش الإسلامي فجُرح على إثر هجمات الجيش النصراني المتوالية، وعند إخبار يوسف بأوضاع المعركة قرر إمداد قواته، فأرسل القائد سير بن أبي بكر على رأس جيش استطاع اختراق قلب جيش النصارى والاتصال بقوات ابن عباد، مخففًا الضغط على المسلمين الذين تراجعوا بسبب هجمات ألفونسو وجنوده.

وكان يوسف يدبِّر ضربةً نهائية يحسم بها أمر المعركة، فاستطاع أن يقلب الموقف لصالح الجيش الإسلامي، وتمثلت ضربته في خطته التي فاجأت العدو تمامًا، فقد تقدم بقواته الاحتياطية متجاوزًا النصارى المهاجمين، فأضرم النار في معسكرهم وسحق حاميتهم ليدخل بعدها المعركة، فظهرت علامات الرعب وآثار الهزيمة على المسيحيين، وكان يوسف قد اصطحب معه جمالًا كانت ذات نفع كبير تحمل العتاد وتجمح منها خيل النصارى، فقاتل المسلمون في ذاك الوقت طلبًا للشهادة واضطربت القوات النصرانية.([55])

وبدا خط المعركة يسير إلى مصلحة المسلمين؛ إذ حوصرت القوات الصليبية وقائدها ألفونسو و»اقتحم المرابطون محلته للحين ثم برز الجميع إلى مأزق، تعارفت فيه الوجوه، فأبلوا بلاءًا عظيمًا وأجلت عن هزيمة العدو واستئصال شأفته. وأفلت أدفونش في فل قليل، قد أصابته جراحة، وأعز الله المسلمين ونصرهم نصرا لا كفاءة له»([56]).

«وبات المسلمون تلك الليلة يقتلون ويأسرون ويغنمون ويشكرون الله تعالى على ما منحهم حتى أصبح، فصلوا صلاة الصبح وسط المقتلة، وكانت هذه الهزيمة العظيمة على أعداء الكفرة من أكبر الوقائع»([57])، وفي نهاية المعركة فر النصارى من ميدان الحرب، فحدثت فيهم مقتلة كبيرة، ولم ينج منها إلا ألفونسو ومن معه في أقل من خمسمائة فارس، وبهذا النصر المؤزر الذي أحرزه المسلمون بقيادة يوسف بن تاشفين انتهت الموقعة التي دامت ليوم واحد فقط.([58])

لقد كان انقشاع غبار المعركة الكبرى قد انجلى عن انتصار كبير للمسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين، على القوات الصليبية بزعامة ألفونسو السادس الذي أصيبت ساقه وهرب سريعًا إلى عاصمته طليطلة، التي سارع بتحصين أسوارها تأهبًا لأي ملاحقة من طرف المرابطين، إلا أن ابن تاشفين لم

يلحق به واكتفى بالنصر في المعركة، التي تمكن على إثرها من إيقاف العدوان النصراني والتصدي لزحفهم الخطير، «ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحا لهم وبهم، وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس»([59]).

لكن الأمر الذي يستوقفنا هنا؛ هو لماذا لم يتبع الأمير يوسف وجيشه المرابطي ألفونسو وفلول قواته المهزومة إلى مدينة طليطلة المحتلة حديثًا من طرف هؤلاء الصليبيين؟! لا سيما وأمر النصارى عمومًا قد اضطرب بعد صدمة الهزيمة القاسية، وهم الذين كانوا يتوقعون نصرًا مؤزرًا على المسلمين، إذ استخف القشتاليون بالمرابطين وسخروا منهم لكونهم قادمين من الصحراء، فكانوا ينتظرون هزيمتهم وتحقيق طموحهم الصليبي بغزو كامل للأندلس الإسلامية.

وفي تقديري الخاص؛ فإن الإجابة عن هذا السؤال الإشكالي تنبع من خلال فهم طبيعة وأصل قدوم يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، فهو قد أتى ملبيًا نداء الأندلسيين وعلى رأسهم ملوك الطوائف من أجل التصدي للغارة النصرانية الخطيرة، وبالتالي فعمله -حسب اتفاقه مع حكام الطوائف- ينحصر في الدفاع فقط لا الهجوم، وبالتالي فهو شخص لا يستطيع اللحاق بألفونسو المنهزم لأن هذا سيعد غزوًا، الأمر الذي يتوجس منه ملوك الطوائف منذ البداية، وهو ما سيرفضه ابن تاشفين بصفته منقذًا فقط جاء ليرد عاديات النصارى.

والحقيقة أنه لو ذهب الأمير يوسف مع جيوش المسلمين من المرابطين والأندلسيين خلف النصارى الهاربين من أرض المعركة، لحاصر مدينة طليطلة وربما لاستطاع دخولها وتحريرها، خصوصًا كما قلنا أن المسيحيين كانوا في حالة هلع وارتباك نتيجة الهزيمة، ولكان مصير الأندلس قد تغيَّر وكُتب على نحو آخر، لكن هكذا جرت الأحداث، وهذا هو التاريخ، وليس هناك «لو»، واكتفى ابن تاشفين بالظفر الكبير في معركة الزلاقة التي أفرحت المسلمين جميعًا وأغاظت النصارى جميعًا.

وتعد معركة الزلاقة من المعارك الكبرى والفاصلة في التاريخ الإسلامي عمومًا، والتاريخ الأندلسي خصوصًا، التي على إثرها استطاع أمير المرابطين يوسف بن تاشفين إنقاذ الأندلس من سقوط وشيك وأمدَّ من عمرها لأربعة قرون إضافية، كما كانت من أقوى الغزوات التي قادها الأمير يوسف، وافتتح بها مسيرته الجهادية في البلاد الأندلسية، التي ستصبح عما قريب جزءًا من مشروعه الإصلاحي والوحدوي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

ضّم الأندلس. العبور الثاني نحو الأندلس:

بعد معركة الزلاقة التي انتهت بدحر الجيوش المسيحية ووقف زحفها على الأندلس الإسلامية؛ رجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب بعد أن رأى أنه لا جدوى من بقائه في تلك البلاد بعد أداء مهمته الجهادية، كما أنه وصل إلى مسامعه خبر مرض ابنه البكر أبو بكر الذي تركه نائبًا له في مراكش، بالإضافة إلى أن ملوك الطوائف ما كان ليسرهم بقاء الأمير يوسف وقواته في أراضي الأندلس، فطبيعة هؤلاء الملوك الفاسدة جعلتهم يتوجسون من تواجد ابن تاشفين في بلادهم منذ البداية، لذلك كانوا يلحون عليه بطريقة وبأخرى للمغادرة.

لكن الدافع الأبرز وراء مغادرة أمير المرابطين فور انتهاء معركة الزلاقة ٤٧٩هـ/١٠٨٦م؛ نابع من قناعته الشخصية في كونه قد أتى من أجل جهاد النصارى تلبيةً لاستغاثة المسلمين في الأندلس، فرأى أنه لا معنى لوجوده في البلاد بعد الهزيمة الفادحة التي مني بها ألفونسو السادس وجيشه الصليبي.

لكن معركة الزلاقة هذه لم تُنهِ المشاكل الداخلية للبلاد الأندلسية، إذ سرعان ما عاد ملوك الطوائف إلى النزاع والصراع بالرغم من النصح الذي قدمه لهم ابن تاشفين، وعادت الممالك النصرانية في الشمال إلى حشد قواتها والتربص بالمسلمين ومهاجمتهم، إذ قرر ألفونسو السادس الانتقام لما حل به من هزيمة وإهانة، فتوجه بذلك نحو شرق الأندلس وبنى فيه حصنًا منيعًا يدعى «لييط»، فصار مركزًا لانطلاق الغارات التي تسلب وتنهب ممتلكات المسلمين في دويلات الطوائف بتلك النواحي، فما كان من الأندلسيين بعد أن رأوا العجز المتواصل من حكامهم إزاء هذه المصيبة الجديدة سوى أن استغاثوا من جديد بيوسف بن تاشفين، وكان ذلك عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م.

«فساء ابن عباد ذلك وضاق ذرعًا، ولما رأى تماديهم على ذلك عبر البحر إلى العدوة إلى لقاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فلقيه بالمعمورة من ملقى وادي سبو، فشكا إليه حصن لييط، وشدة ضرره على المسلمين واستغاث به في ذلك»(60)، كما توافد عليه الأعيان وممثلي الأهالي يستنجدون به من الخطر المحدق الذي عاد يتربص بهم، فما كان من الأمير يوسف إلا أن وافق على الفور من جديد وكعادته على تقديم العون ونصرة الإسلام.

فبدأ المرابطون فورًا في تجهيز حملتهم إلى الأندلس لمقارعة النصارى مرة أخرى، فخرج ابن تاشفين من مراكش ووصل إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول من عام ٤٨١للهجرة الموافق ليونيو ١٠٨٨م، وكتب إلى أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، «والموعد حصن لييط، فاجتاز على مالقة، واستنفر صاحبها المستنصر بالله تميم بن بلقين بن باديس، وتلاحق به أخوه المظفر عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم بن صمادح من المرية، وتوافى رؤساء الأندلس من شقورة وبسطة وجيان»، (61)فاجتمعوا عند أمير المرابطين الذي نظم قواتهم مع قواته، واتجه بهم نحو لييط.

وعلى الجهة الأخرى كان القشتاليون يواصلون غاراتهم وعدوانهم على الأراضي الإسلامية، فتفاجئوا بالقوات الإسلامية الحاشدة وهي تتقدم نحوهم بقيادة يوسف بن تاشفين الذي مرغ أنوفهم في موقعة الزلاقة من قبل، فضرب الأمير يوسف حصارًا شديدًا على الحصن، مما دفع بأصحاب الحصن إلى الاستنجاد بألفونسو السادس في طليطلة الذي أمدّهم بقوات مساعدة، ما أدى إلى حدوث

اشتباكات ومناوشات حول الحصن بين الجيش الإسلامي والقوات النصرانية، «واتصلت الحروب، وكثر الوارد، وتمادى القتل على الحصن ليلًا ونهارًا مدة شهر»([62]).

لكن ابن تاشفين بالرغم من استعداده لإنهاء مشكلة حصن لييط؛ لم يستطيع اقتحامه لمناعته وتوافد تعزيزات قشتالية من طليطلة، بالإضافة إلى ظهور خلافات وسط ملوك الطوائف المرافقين له، حيث ساء يوسف ذلك كثيرًا وتضايق من خيانة ابن رشيق وفرار جيشه الذي منع الزاد عن المرابطين، مما أدى إلى اضطراب الأحوال، فاستغل ألفونسو ذلك فأسرع بإعداد جيش لإنقاذ الحصن، ليتراجع ابن تاشفين خشيةً من معركة خاسرة ([63])، فقام ألفونسو السادس بهدم الحصن بعد تراجع المسلمين.

وحصن لييط في النهاية قد تهدم، وزال بذلك الخطر على المسلمين في الشرق الأندلسي، إلا أنه رغم كل ذلك ظهر انقسام وصراع بين أمراء الطوائف أثناء حصار الحصن ومواجهة النصارى، الأمر الذي أضعف جبهة المسلمين أمام المسيحيين، وجعل يوسف بن تاشفين ينسحب أمام ألفونسو وجيشه القادم بالتعزيزات، بعد أن أرغمه صراع ملوك الطوائف فيما بينهم على ذلك، الأمر الذي أزعجه كثيرًا، فقد رأى الموقف الحقيقي لأمراء الأندلس وما جُبلوا عليه من حب للفتن والمشاحنات فيما بينهم لقلة صبرهم وضعف إحساسهم بالمسؤولية، فأفسدوا على يوسف جهاده لتتكشف حالتهم وتظهر عوراتهم.([64])

ليلمس ابن تاشفين بعد ما حدث حقيقة ملوك الطوائف القائمين بأمر الأندلس أمام عينيه، فازداد يقينًا بأمراء الطوائف غير المخلصين للجهاد وغير المعنيين بأمور المسلمين في البلاد، بل اقتصر همهم في المحافظة على عروشهم، بل أكثر من ذلك؛ فحتى في خضم المواجهة مع النصارى القشتاليين اتصل بعض من هؤلاء الملوك بألفونسو محاولين استرضاءه واستعطافه، في خيانة واضحة لقضية الجهاد الإسلامي بالأندلس، الأمر الذي جعل يوسف بن تاشفين بعد كل هذا يعود بسرعة إلى المغرب، وفي قرارة نفسه إزالة ملوك الطوائف وحسم أمرهم، باعتبارهم المشكل الأول والأكبر لبلاد الأندلس ومصير المسلمين فيها.

العبور الثالث والضّم المرابطي للأندلس:

استقر قرار يوسف بن تاشفين بعد رجوعه الأخير من الأندلس على حسم أمر ملوك الطوائف وإزالتهم عن الحكم الأندلسي، بعد أن رأى بنفسه نزاعاتهم البينية وخيانتهم السافرة للمسلمين بالتواطؤ مع النصارى الأعداء، فجلس طويلًا وهو يفكر في أمرهم وفي كيفية التخلص منهم، منذ عودته الأخيرة عام ٤٨١هـ، فقام أولًا باستشارة العلماء والفقهاء في هذا الشأن السياسي الحساس.

فقد كان يشاور بين الفينة والأخرى علماء وفقهاء دولته في المغرب، وكذلك اتصاله الدائم مع علماء الأندلس وقضاتها الذين يتوافدون عليه بشكل مطّرد منذ أن ربط نفسه بالقضية الأندلسية، وقد مكنه هذا من تحقيق خطة رسمها منذ زمن لضم البلاد، وكان من بين هؤلاء العلماء والقضاة قاضي غرناطة وقاضي مالقة اللذان أصدرا فتوى مفادها أن ملوك الطوائف ليسوا أهلًا للحكم بسبب خروجهم عن أحكام القرآن، وبالإضافة إلى أن يوسف استشار علماء المشرق قصد الاطمئنان، فأيدوه جميعًا ومن بينهم الغزالي([65]).

وقد وصل حرص ابن تاشفين الشديد على استفتاء أهل العلم إلى اتصاله بعلماء المشرق الإسلامي، وعلى رأسهم حجة الإسلام الإمام أبي حامد الغزالي و العالم الكبير أبي بكر الطرطوشي، اللذان أفتيا بجواز خلع ملوك الطوائف في الأندلس لكي يستقيم جهاد القوى النصرانية، فاجتمعت عند الأمير يوسف فتاوى علماء المغرب والأندلس ثم علماء المشرق، التي اتفقت جميعها على ضرورة القضاء على سلطة ملوك الطوائف وضم البلاد الأندلسية إلى حكم الدولة المرابطية.

فقام في عام ٤٨٣هـ/١٠٩٠م بإعداد العدة والعتاد، وعبر البحر للمرة الثالثة قصد الجهاد في سبيل الله، وتشير بعض المراجع إلى كونه قد سار أولًا حتى طليطلة وحاصر ألفونسو بها، لكنه لم يفلح في دخولها، بسبب تقاعس ملوك الطوائف عن مساعدته الأمر الذي أثار حنقه بشدة عليهم، فرجع عن طليطلة ليعبر نحو غرناطة ففتحها ونفى صاحبها إلى مراكش بعد حصار طويل، فعاد إلى المغرب وأناب قائده سير بن أبي بكر ليكمل ما بدأه نحو إخضاع بلاد الأندلس.(66)

وإن كان الأمر هكذا؛ فربما كان ليختبر للمرة الأخيرة سلوك أمراء الطوائف قبل أن يحسم أمرهم، أو ليرهب النصارى الأعداء أولًا قبل البدء في فتح مدن الأندلس الإسلامية، ومهما يكن الأمر فإن ابن تاشفين قد عبر إلى أرض الأندلس وانتدب قادته وقسم بينهم جيشه، من أجل عمليات غزو دويلات الطوائف، حيث ولى سير بن أبي بكر الأمر فسار الأخير بجيوش المرابطين نحو إشبيلية، وجيش آخر على رأسه أبو عبد الله بن الحاج إلى قرطبة، وعاد يوسف إلى المغرب وبقي في سبتة بقواته الاحتياطية.(67)

ليتابع ابن تاشفين أمور الأندلس من مدينة سبتة، و»توالت عليه الأخبار من الأمير عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده، فاستنزل من مالقة أخاه المستنصر تميم بن بلقين، وتوجه إلى غرناطة، فلقيه المظفر عبد الله بن بلقين خارج الحضرة، فسلم عليه، وترجل إليه، ودخل معه البلد، وسلم إليه الأمر، وأقام ينظر في توطيد البلد، وتمهيد الأمور، ثم احتمله هو وأخاه المستنصر تميما إلى العدوة، وأسكنهما أغمات»(68).

ودخل المرابطون بعدها قرطبة بعد قتال حاكمها الذي رفض الاستسلام، ثم سارت القوات المرابطية إلى إشبيلية فأرسل ألفونسو السادس جيشًا بهدف دحر المرابطين وإبقاء الأندلس ممزقة مستغلًا الفرصة، لكن ما لبث أن هُزم جيشه على يد القائد سير بن أبي بكر في معركة عنيفة شمال إشبيلية، ووصلت أنباء هذا النصر جميع أصقاع الأندلس وأعلن حاكمي كل من دانية والجزر الشرقية انضمامهما لدولة المرابطين.

كما أعلن بنو هود حكام مدينة سراقسطة المعروفة بالثغر الأعلى في شمال شرق الأندلس تبعيتهم لأمير المرابطين يوسف بن تاشفين، الأمر الذي جعل هذا الأخير يقرهم على هذه المدينة وعلى هذه المنطقة، التي تعتبر ثغرًا كبيرًا في حدود الممالك النصرانية، فكان اتفاق المرابطين مع بني هود يتجلى في التعاون والتضامن على جهاد النصارى والتّصدي لغاراتهم على بلاد المسلمين.

وتهاوت باقي ممالك الطوائف تباعًا تحت ضربات المرابطين، ولم تشفع لها إمدادات قشتالة التي تصدت لها القوات المرابطية وردتها خائبةً مهزومة، ليكون الأمير يوسف قد «ملك مملكة خمسة أمراء من أمراء الأندلس في سنة ونصف، وهم: ابن عباد، وابن حبوس، وابن الأخوص، وابن عبد العزيز، وعبد الله بن بكر صاحب جيان وأبلة وأستجة... وفي سنة ست وثمانين وأربعمائة فتح

المرابطون مدينة أفراغ من بلاد شرق الأندلس، ولم يزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يبعث جيوشه وقواده إليها برسم الجهاد للروم وخلع أمرائها المتغلبين عليها حتى ملك جميع بلاد الأندلس واستوثق له أمرها»([69]).

ففي النهاية تمكن المرابطون من القضاء على ملوك الطوائف ونفيهم إلى بلاد المغرب وإفريقية، لتنتظم الأندلس في سلك دولتهم منذ عام ٤٨٣هـ، التي توالت فيها المدن الأندلسية في السقوط على يد المرابطين، فبعد قرطبة التي سقطت سنة ٤٨٤هـ، أخضعت قرمونة في نفس السنة بعد حصار قصير، لتتبعها إشبيلية في رجب من سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م([70]).

وبالحديث عن إشبيلية وأميرها المعتمد بن عباد أكبر ملوك الطوائف وأفضلهم، فقد رفض الأخير تسليم المدينة بالرغم من أن أهلها وافقوا على الانضمام لدولة المرابطين، واضطر المعتمد للاستسلام بعد مقاومة منه، وأصبحت إشبيلية بعد ذلك مع مدن الجنوب في طاعة المرابطين، ونفي المعتمد بعدها أسيرًا إلى أغمات ومات بها سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م.

وهنا تنتهي القصة الدرامية للمعتمد بن عباد الذي كان أول المتصلين بيوسف بن تاشفين من ملوك طوائف الأندلس، وهو نفسه الذي اشتهر بتصريحه الذي قال فيه بأنه يفضل رعي الجمال لأمير مراكش المرابطي على رعي الخنازير لألفونسو النصراني، وقد حقق له المرابطون ما أراد إلا أنه خانهم في النهاية أسوةً بنظرائه من باقي أمراء الأندلس، وفضل الوقوف بجانب الملك القشتالي يدفع له الجزية مقابل أن تبقى الأوضاع كما هي على أن ينضم إلى صفوف إخوته المرابطين، الأمر الذي جعل ابن تاشفين يأسره ويحبسه في أغمات إلى أن توفي فيها حزنًا وكمدًا.

واستمر يوسف بن تاشفين وجيوش المرابطين في تقدمهم بالأندلس، فاستردوا مدينة بلنسية في سنة ٤٩٥هـ/١١٠٢م، التي وقعت تحت سيطرة فارس قشتالي يلقب بالسيد القمبيطور، المعروف بفظاعته واعتداءاته على المسلمين، ثم قام المرابطون بعدها بضم عددٍ من مدن شرق الأندلس مثل مربيطر والمنارة والسهلة وغيرها، بعد انتصارات متتالية حققوها على النصارى و قوات ألفونسو السادس في عدد من المعارك عند قنسوجرة وقونقرة وملجون، وكان ذلك في عام ٤٩٤هـ/١١٠١م.([71])

وبالقضاء على ملوك الطوائف على يد يوسف بن تاشفين وتحقيق المرابطين لمزيد من الانتصارات على القوى المسيحية؛ انضمت الأندلس إلى دولة المرابطين وفرح أهلها بذلك واستقبلوا المرابطين، لتتوحد الأندلس أخيرًا بعد عقود التناحر والتشتت، وهذه المرة هي الأولى تحت سلطة المغاربة المجاهدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

توحيد الأندلس مع المغرب

استطاع الأمير يوسف بن تاشفين توحيد المناطق الإسلامية في الأندلس، بعد التّصدي للزحف الصليبي والقضاء على ملوك الطوائف، ليتم توحيد الأندلس لأول مرة مع بلاد المغرب تحت سلطة مغربية ودولة كبرى وقوية، صار لها صدى واسع ليس في العالم الإسلامي فحسب بل في العالم أجمع.

وكل ذلك تم على يد يوسف بن تاشفين، هذا القائد الموحّد الذي ندب نفسه للجهاد وتوحيد البلاد وإنقاذ العباد، فمن تأسيسه لدولة المرابطين وتوحيده للأقاليم المغربية الممزقة قبليًا وطائفيًا والمنهارة سياسيًاإلى غاية الإقبال على الأندلس بجهاد النصارى المستكبرين وحماية المسلمين المستضعفين، ثم القضاء على أسباب الضعف والفرقة هناك بتصفية ملوك الطوائف ونفيهم، ثم ضم البلاد مباشرة إلى حكم مراكش.

فصارت دولة المرابطين في هذه الفترة على شكل إمبراطورية قوية ممتدة على قارتين، ومشكلةً من جديد لما سمي بالغرب الإسلامي، وهي الكتلة الجغرافية التي أقامها المسلمون حضاريًا وسياسيًا في الطرف الغربي من العالم الإسلامي، والمقصود به هنا أجزاء من بلاد المغرب والصحراء الإفريقية ثم الأندلس الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية التي تخضع للدولة المرابطية، فدرج المؤرخون على وصف هذه البلاد الموحدة سياسيًا على يد ابن تاشفين بالغرب الإسلامي، كما عند الذهبي الذي وصف يوسف «بصاحب الغرب»، الذي»استولى على البلاد من تلمسان إلى طرف الدنيا الغربي»([72]).

فيوسف أنهى التمزق الذي حوَّل المغرب إلى ما يشبه فسيفساء من الكيانات الجهوية، وتمكن المرابطون من إسقاط هذه الإمارات منذ منتصف القرن الخامس للهجرة، منشئةً على أنقاضها دولة جامعية وكيانًا جامعًا للمغرب والأندلس إيذانًا بانفتاح عصر جديد ([73])، فصار المغرب الأقصى إضافةً إلى المناطق الغربية من المغرب الأوسط والصحراء الكبرى ثم الأندلس الإسلامية في شبه الجزيرة الأيبيرية، كيانًا سياسيًا واحدًا ذا سلطة مركزية واحدة ومذهبٍ سنيٍّ صحيح.

وقد حقق الأمير يوسف هذا العمل باعتباره عملًا وحدويًا في كل من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط إضافةً إلى الأندلس والصحراء إلى حدود غانة ومالي في الغرب الإفريقي، وبذلك ضمن للدولة المرابطية أن تنعم بوحدة سياسية ومذهبية عقائدية، لا سيما في الأندلس بعد محو دويلات الطوائف المتخاذلة والمتواطئة مع العدو الصليبي، فصارت خاضعةً للحكم المركزي الذي ينبعث من كرسي الدولة بحاضرة مراكش.([74])

وبتمكن الأمير يوسف من ضم الأندلس بعد سلسة من الجوازات إليها، صار في منتهى قوته وأصبحت دولة المرابطين من أقوى الدول الإسلامية آنذاك، حتى صارت مرهوبة الجانب من طرف أوروبا المسيحية ناهيك عن الممالك النصرانية في شمال أيبيريا، التي لم تقو على شيء وهي تشاهد المرابطين يفتحون المدن الأندلسية، وكيف لا وقد «ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ولم يختلف عليه شيء منها، عدّ من يومئذ في جملة الملوك، واستحق اسم السلطنة، وتسمى هو وأصحابه بالمرابطين؛ وصار هو وابنه معدودين في أكابر الملوك؛ لأن جزيرة الأندلس

هي حاضرة المغرب الأقصى، وأمٌّ قراه، ومعدن الفضائل منه؛ فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبين إليها، ومعدودين منها؛ فهي مطلع شموس العلوم وأقمارها، ومركز الفضائل وقطب مدارها؛ أعدل الأقاليم هواء، وأصفاها جوا، وأعذبها ماء، وأعطرها نبتا، وأنداها ظلالا، وأطيبها بكرا مستعذبة وآصالا»([75]).

والحق أن هذه ليست أول مرة تكون فيه وحدة سياسية بين قطري الأندلس والمغرب؛ لكن لم تكن بهذا الاتصال الجغرافي الضخم كما حققه يوسف بن تاشفين، ففي فترة الفتح الإسلامي وما أعقبها لم يكن الإسلام قد شمل بعد أقاصي جنوب المغرب، وفي عهد قوة الخلافة الأموية الأندلسية كانت مناطق الريف وأقصى الشمال المغربي هي فقط المنضوية تحت سلطان قرطبة، كما أنه في فترة الحاجب المنصور بن أبي عامر كانت مدينة فاس هي أقصى نقطة وصل إليها نفوذه.

وبالتالي فإن فترة ابن تاشفين والمرابطين هي المتسعة جغرافيًا وحضاريًا في الوحدة المغربية الأندلسية، حتى إنه قد «خطب له بالأندلس والمغرب على ألف منبر وتسعمائة منبر، وكان ملكه من مدينة أفراغة أول بلاد الإفرنج قاصية شرق بلاد الأندلس إلى آخر عمل شنترين و الأشبونة على البحر المحيط من بلاد غرب الأندلس، وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوما طولًا، وفي العرض مايقرب ذلك ، وملك بالمغرب من بلاد العدوة من جزائر بني مزغنة إلى طنجة إلى أخر السوس الأقصى إلى جبل الذهب من بلاد السودان»([76]).

وقد كان من بين ألقاب الأمير يوسف بإنجازه هذا: سلطان العُدوتين الذي يعني أمير الضفتين؛ الضفة أو العُدوة المغربية ثم الضفة أوالعُدوة الأندلسية، وهذا أمر لم يتحقق لملك مغربي من قبل، ولا حتى لملك أندلسي، فكل ما وصل إليه الأندلسيون من قبل هو الجزء الشمالي من المغرب الأقصى، وهذا يدل على حجم القوة التي أسسها المرابطون بقيادة ابن تاشفين في بلاد المغرب والأندلس، هذا الأخير «لو سار لتملك مصر والشام»([77]).

وبهذا العمل الحضاري الضخم الذي أنجزه يوسف بن تاشفين على مدى نصف قرن، كان لابد أن يتوج بسمعة عظيمة في أجواء البلاد الإسلامية والنصرانية على حد سواء، فلم يعد ذلك الرجل البدوي الصحراوي الذي كان يراه ألفونسو السادس قبيل معركة الزلاقة، بعد أن صارت تلك الأراضي منتظمةً في سلك حكمه، ولم يتوسع يوسف في بلاد المغرب باتجاه الشرق نحو باقي مناطق الشمال الأفريقي، لأنه كان يرى أن جيوشه يجب أن تخدم الإسلام وتجاهد عدوه المتربص هناك في شمال الأندلس، وارتضى لنفسه –تواضعًا- أن يكون تابعًا بشكل رمزي للخلافة العباسية في العراق، بعد أن رفض إلحاح الأعيان والعلماء أن يكون خليفةً وأميرًا للمؤمنين، بالرغم من قوته وعزته وماكانت تمر به الدولة العباسية آنذاك من ضعف وهوان، فرحب العباسيون بالأمر باعتباره فخرًا، ولقب نفسه أثناء ذلك بأمير المسلمين، فكان بالتالي أول من لُقب بهذا الاسم في التاريخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

وفاته وميراثه

توفي أمير دولة المرابطين يوسف بن تاشفين في عام ٥٠٠هـ/١١٠٦م، بعد أن أنهى تأسيس دولته الكبرى وثبّت أركانها في المغرب ثم الأندلس، وبحسب ما اتفقت عليه المصادر التاريخية فإن عمره كان وقت وفاته مئة سنة هجرية، وبهذا يكون قد عاش طوال سنين القرن الخامس الهجري باعتبار أن ولادته كانت في عام ٤٠٠هـ، وبالرغم من أنه يمكننا أن نشك في تاريخ ولادته؛ إلا أن وقت وفاته ثابت وموثق بإجماع المؤرخين.

وإذا سلمنا بحقيقة كونه قد عاش قرنًا كاملًا من الزمن، فهذا يعني أن حياة الرجل حافلة بالتجارب الطويلة والمتراكمة، قبل انخراطه في صفوف المرابطين وانضمامه إلى دعوة الشيخ عبد الله بن ياسين، فحينما تولى قيادة الجيش المرابطي الفاتح كان قد أصبح في سن الكهولة، التي تتسم دائمًا بالخبرة والنضج، وعندما توجه إلى الأندلس كان بالفعل في سن الشيخوخة! ولم يمنعه هذا من قيادة المسلمين نحو الظفر والنصر بعد التغلب على الجيش النصراني في موقعة الزلاقة، ليستكمل بعد ذلك سن شيخوخته التي لم تغب عنه فيها حكمته وبصيرته، وهو يواصل العمل على حماية الأندلس وضمها إلى حكم دولته!

وكبر سنه هذا لم يقعده عن تدبير أمور دولته، والانتقال عبر أقطارها، حيث كان في سنواته الأخيرة قد عبر إلى الأندلس لتفقد البلاد والرعية والثغور الجهادية، ويعد هذا الجواز الرابع والأخير في سيرة الأمير يوسف، إذ «أجاز يوسف بن تاشفين الجواز الرابع سنة سبع وتسعين وأربعمائة»([78])، أي قبل ثلاث سنوات من وفاته وتولي ولي عهده ابنه علي الحكم المرابطي.

وقد قرر ابن تاشفين قبل ذلك أن يفكر في مستقبل دولته وميراثه العظيم الإحيائي والإصلاحي، فقرر أن يختار وليًا لعهده كما جرت عليه القاعدة في تلك العصور، فكانت سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م التي اختار فيها الأمير يوسف ابنه عليًا الذي لم يكن أكبر أبنائه، لكنه كان في نظر أبيه يوسف ورعًا ونبيهًا وحازمًا ([79])، وقد أشرنا مسبقًا إلى أن يوسف قد فقد ابنه الأول أبا بكر بعد معركة الزلاقة، الذي كان من المرجح أن يكون وليًا للعهد بعد وفاة أبيه يوسف.

«وفي سنة ست وتسعين وأربعمائة أدى أمير المسلمين البيعة لولده علي بقرطبة فبايعه جميع أمراء لمتونة وأشياخ البلاد وفقهاؤها وذلك في شهر ذي الحجة منها([80])، ويبدو أن هذه البيعة كانت ضمن الجواز الأخير الذي أشرنا إليه آنفًا؛ إذ اختار الأمير يوسف الأندلس مكانًا لعقد البيعة، مما يجعل لهذه البلاد أهمية كبرى في عين الأمير المرابطي، فلما قربت وفاته أوصى ابنه وولي العهد بعده أبا الحسن عليًا بثلاث وصايا: الوصية الأولى: ألا يهيّج أهل جبل درن، ومن من ورائه من المصامدة وأهل القبلة، الثانية: أن يهادن بني هود بالأندلس، وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم، الثالثة: أن يقبل من محسن أهل قرطبة. ويتجاوز عن مسيئهم»([81]).

«وقد مات في مستهل شهر محرم سنة خمسمائة، ودفن بقصره بحضرة مراكش، وحضر موته ابناه: الأمير أبو تميم، وأبو الحسن علي، مع من حضر من عترته الصنهاجية، وأسرته اللمتونية، قبض وهو على أوله في العدل والجد في نصر الدين، وإظهار الكلمة وعضد الإسلام، رحمة الله

عليه»([82])، وكان قد مرض قبل عامين من وفاته أي في سنة ثمان وتسعين، وابتدأته العلة التي مات منها وهو بمدينة مراكش، فلم يزل مرضه يشتد وحاله يضعف إلى أن توفي رحمه الله في مستهل شهر محرم سنة٥٠٠هـ الموافق للأحد ٢ شتنبر ١١٠٦.([83])

وبالتالي انتهت حياة يوسف بن تاشفين وتجربته الجهادية العظيمة، التي أثمرت دولةً بقوة ومكانة دولة المرابطين، التي أخضعت المغرب وضمّت الأندلس، وصارت مرهوبة الجانب من قبل القوى المسيحية الأوروبية والأيبيرية، حتى إن هؤلاء النصارى كانوا ينتظرون موته بفارغ الصبر كي يستأنفوا حملاتهم الصليبية التوسعية على المسلمين في الأندلس، بدليل أن بعد وفاته مباشرةً بعام واحد وقعت معركة إقليش سنة ٥٠١هـ/١١٠٨م، في عهد علي بن يوسف بين النصارى والمسلمين، حيث استطاع فيها المسلمون التصدي للحملة النصرانية الخطيرة ودحرها، فانتهت بمقتل سبعة أمراء من مملكة قشتالة بالإضافة إلى ولي عهدها، الذي هو ابن ألفونسو السادس نفسه الذي مات بعدها بقليل حزنًا عليه.

وإن دلّ هذا على شيء فهو يدل على أن ابن تاشفين قد ترك ميراثًا عظيمًا؛ يتمثل في دولة عظمى ندبت نفسها للإصلاح والرشاد وللدفاع عن الإسلام ومواصلة الجهاد ضد أعدائه في الأندلس، فكانت في صفوف الدول العظمى والكبرى في التاريخ الإسلامي والعالمي، ومن الدول المؤثرة أو التي طبعت آثارها في تاريخ المغرب وكذا في تاريخ الأندلس، فيوسف بن تاشفين يمثل الفترة التي عبر منها تاريخ المغرب، من الاضطرابات والفوضى والغموض إلى الإحياء والوحدة والإصلاح والمنهج الصحيح، أما في الأندلس فيعد ابن تاشفين القنطرة التي مرت منها الأندلس من الانقسام والطوائف والسقوط الوشيك إلى الاتحاد والتلاحم والارتباط مع المغرب، لتكون هذه التجربة التاشفينية قد أورثت لبقية المرابطين هذه الوحدة وهذا الجهاد، وكذلك لدولة الموحدين ومن جاء من بعدهم، من الذين سعوا إلى الحفاظ على هذا الميراث العظيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث

تجربة يوسف بن تاشفين آثارها وموقعها في التاريخ والحضارة

تمهيد

من الناحية الزمنية فالناظر إلى يوسف بن تاشفين وفاعليته على ساحة التاريخ؛ يراه رجل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري (٤٤٨-٥٠٠هـ) الذي قاد جيوشًا وبنى دولةً وفتح بلدانًا وأنقذ أمةً، كل ذلك في سبيل رسالة الإسلام ودعوته، التي حملها المرابطون منذ فترة الشيخ عبد الله بن ياسين الذي يعد ابن تاشفين أكثر طلابه تطبيقًا للرسالة وللدعوة المرابطية على أرض الواقع، وعلى المستوى السياسي والاجتماعي.

فبعد أن رأينا في الفصلين السابقين سيرة يوسف بن تاشفين وتجربته القيادية والجهادية، في بلاد المغرب أولًا منذ أن كان في رباط ابن ياسين إلى كونه الفاتح الأكبر في جيوش المرابطين، ثم انتقاله إلى الزعامة العامة للمرابطين وتأسيسه الفعلي للدولة المرابطية في قلب المغرب، وتوسيعها لتشمل أراضي المغرب الأقصى والجزء الغربي من المغرب الأوسط، وكل ذلك في إطار توحيد المغرب على منهاج السنة والجماعة، وإزالة الفرقة القبلية والسياسية والقضاء على الطوائف والمذاهب المنحرفة، ليأتي دور الأندلس بعد ذلك التي توجه إليها في المقام الأول بدافع الجهاد فقط، ثم تحول ذلك الجهاد المحصور إلى جهاد مفتوح وإلى الضّم السياسي للبلاد بعد أن تمادت فتنة ملوك الطوائف، ليتم إزالتهم والتفرغ للنصارى والوقوف في وجه أطماعهم الصليبية.

لكن يبقى أن نلقي نظرة استقرائية وتقديرية لتجربة ابن تاشفين الغنية وأهم آثارها التاريخية ومعالمها الحضارية؛ التي صارت من الصفحات المضيئة في التاريخ الإسلامي، سواءً في صفاته ومناقبه الشخصية، أو كأمير وعلاقاته مع من حوله ومع من تعامل معهم، ثم الرؤية التاريخية العامة لعصره، وأوجه الحضارة الإسلامية في دولته، وأخيرًا أهم ما عُرف به على المستوى التاريخي كلقب أمير المسلمين، وخلاصة تجربته الفريدة التي يمكن إدراجها إلى جانب تجارب الصحابة الكرام والخلفاء الراشدين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

صفاته الخَلقية والخُلقية.. قالوا عنه:

بلا شك فإنه لا يمكن لرجل أن يحقق كل هذا التقدم وهذا النصر والفتح في سبيل عزة الإسلام والمسلمين في مناطق المغرب والأندلس؛ دون أن يكون له حظ وافر من الأخلاق والمناقب الحسنة والصفات الشخصية والجسدية اللائقة، التي أهلته ليحظى بتلك المكانة المرموقة التي وصل إليها، وقد عرض المؤرخون المعاصرون ليوسف بن تاشفين مجموعة من صفاته الخَلقية والخُلقية التي طبعت مسيرته التاريخية.

فقد حفلت كتب الطبقات والتراجم بمضامين شخصية ابن تاشفين وصفاته، فمثلًا في كتاب «سير أعلام النبلاء» الذي جمع فيه شيخ المؤرخين شمس الدين الذهبي أعلام الأمة من نبلائها وشرفائها ومصلحيها وأئمتها، وجعل للأمير يوسف بعضًا من حديثه، فقال متحدثا عنه: «فطلع بطلًا شجاعًا شهمًا عادلًا مهيبًا... كثير العفو، مقرَّبًا للعلماء، وكان أسمر نحيفًا خفيف اللحية، دقيق الصوت، سائسًا، حازمًا... وفيه بخل البربر»([84]).

وأغلب الظن أن الإمام الذهبي لم يكن يقصد هنا بكلمة «البخل» معنًى سيئًا، فمن طباع ابن تاشفين التقشف والزهد والورع وهي سمات إيجابية في المرء، وتقديري أن هذا كان قصد الإمام الذهبي في كلامه ذاك، إذ كيف يكون بخيلًا وهو قد أحسن وأكرم إلى الأهالي المسلمين وأعيانهم كما رأينا؟! بل بلغت منزلة كرمه أن أحسن حتى إلى خصومه!

ومن صفاته أيضًا ما ذكر ابن الخطيب الأندلسي فيه وعن ما يتصف به من التقوى والحزم، حيث قال: «كان رحمه الله خائفًا لربه كتومًا لسرِّه، كثير الدعاء والاستخارة، مقبلًا على الصلاة، مديمًا للاستغفار، أكثر عقابه لمن تجرأ أو تعرض لانتقامه... يواصل الفقهاء ويعظم العلماء و يحض على العدل، ويصدع بالحق، ويعضد الشرع، ويحزم في المال، ويولع بالاقتصاد في الملبس والمطعم والمسكن»([85])، وكلمات ابن الخطيب الأخيرة هي عينها ما قصد به الذهبي بالبخل، إذ يسميه الأول بالاقتصاد بمعنى التدبير وعدم الإسراف ونبذ الترف.

كما يروي فيه ابن عماد الحنبلي في كتابه الشهير «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» حيث يقول في الأمير يوسف: «كان عظيم الشأن، كبير السلطان، معتدل القامة، أسمر اللون»([86])، وفي كتاب «وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان» الذي قال فيه مؤلفه ابن خلكان متحدثًا عن ابن تاشفين: «وكان حازمًا سائسًا للأمور ضابطًا لمصالح مملكته، مؤثرًا لأهل العلم و الدين كثير المشورات لهم»([87]).

أما عن المؤرخ الأندلسي المجهول صاحب كتاب «الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية»؛ فقد وصف ابن تاشفين في قوله: «كان رجلًا فاضلًا، خيِّرا، زكيًا، فطنًا، حاذقًا، لبيبًا، زاهدًا، يأكل من عمل يده عزيز النفس، ينيب الى الخير و الصلاح».([88])

وقد أجمع هؤلاء المؤرخون والإخباريون على حقائق شخصية يوسف بن تاشفين وصفاته وأخلاقه وسلوكه وتعاملاته، التي ارتقى بها إلى تلك الدرجة التي نالها على مستوى التاريخ والحضارة، فهو بحسب هؤلاء المؤرخين: بشرته سمراء كما تكون عند عامة أهل الصحراء، كما أنه نحيف ومعتدل

القامة لكونه متقشفا كعادة من يعيش في شظف الصحراء، أما عن أخلاقه فهي في غاية العظمة والرفعة، فهو متواضع وزاهد بالرغم من الملك والسلطان الكبير الذي كان بيده، كما أنه كان ذا حزم وقوة وذكاء وحكمة وبعد بصيرة، الأمر الذي جعله يوحد بين إقليمين جغرافيين كانا في منتهى الاضطراب والفوضى والتضعضع.

أما عن حبه للعلماء وأهل العلم والأدب فهذا كان من أسباب ازدهار الحضارة الإسلامية في عهد المرابطين وتجددها في كل من المغرب والأندلس، إذ كان يوسف بن تاشفين يتمتع بشخصية فذة، جعلت أهل العلم يتقربون له، كماكان أيضًا يقرب العلماء وأهل الرأي والحكمة ويتواضع لهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الشخصية القيادية

بالرغم من كوننا لا نعرف شيئًا عن المراحل العمرية الأولى من حياة يوسف بن تاشفين؛ لكننا نكاد نجزم بأنه كان شخصًا موهوبًا في القيادة والزعامة، حتى وإن لم تكن لدينا معلومات موثقة عن توليه أحد المناصب في قبيلته لمتونة؛ لكنني لا أستبعد حدوث مثل هذا الأمر، فمنذ وصول عبد الله بن ياسين إليهم برز ابن تاشفين في رباط الشيخ المالكي وتولى بعدها على الفور قيادة الجيش المنطلق لفتح المغرب.

ولاشك بأن اختيار يوسف لإمارة الجيش المرابطي قد جاء في المقام الأول عن طريق الشيخ عبد الله بن ياسين، ثم الأمير يحيى بن عمر اللمتوني وأخيه من بعده أبي بكر؛ فقد رأى هؤلاء الرجال الثلاثة في ابن تاشفين علامات الشجاعة والإقدام والمسؤولية والتضحية، الأمر الذي جعلهم يقرون بتعيينه قائدًا عسكريًا لجيوش المرابطين التي اخترقت جنوب المغرب الأقصى، ليصبح بالتالي أميرًا على منطقة سوس في فترة أبي بكر بن عمر اللمتوني، الذي جعله نائبًا له على بلاد المغرب وقت حدوث الفتنة بين القبائل الصنهاجية في الصحراء.

وطيلة المدة التي قضاها الأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني وهو يعالج المشاكل التي تحدث بين القبائل الصحراوية؛ كان يوسف بن تاشفين بصفته أميرًا على المغرب يواصل تنظيم شؤون المرابطين، وتمكن بالفعل على ذلك من تأسيس الدولة وترسيخ أركانها ومتابعة الفتوحات في المغرب الأقصى، فوُفّق في ذلك واستطاع بناء مراكش كقاعدة للحكم المرابطي الناشئ على أراضي المغرب، إضافة إلى تمكنه من التنظيم والإدارة وتسيير أمور الدولة الوليدة.

كل هذه الأمور جعلت الأمير أبا بكر يتنازل عن الحكم بكل رضًا وطواعية لابن عمه يوسف بن تاشفين، بعد أن رأى مقدرته الفائقة وحُسن قيادته لشؤون المرابطين، وذلك بعد رجوعه من الصحراء وإصلاح ذات بَيْنِ القبائل الصحراوية المتنازعة، فكان مشهدًا طبع تاريخ المرابطين كجانب من الجوانب المدهشة والمضيئة في تاريخ الإسلام، وهو تنازل الأمير أبي بكر بن عمر اللمتوني لابن تاشفين عن كرسي السلطة، بعد مشاهدته للقوة الكبيرة التي اكتسبها الأمير يوسف من خلال عمله وتدبيره، ليعود إلى الصحراء مستكملًا مشوار المرابطين في فتوحات غرب إفريقيا.

أما عن ابن تاشفين فقد استطاع ضم المغرب الأقصى والقسم الغربي من المغرب الأوسط، وتمكن من القضاء على خصومه وأعدائه وإزاحتهم من طريقه، وذلك بأسلوب القوة والحزم ضد من لا يزال مستمرًا في بغيه وضلاله، وكذلك عن طريق سياسة التسامح مع الأهالي والعفو عنهم، ليقيم فيهم العدل المستمد من الشرع الإسلامي، فكان ذلك كله نتيجةً لسياسته الحكيمة التي نهجها في المغرب إلى غاية فتح مدينة سبتة في عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م، الذي أنهى به التوسع في بلاد المغرب، وآثر بعد ذلك التوجه نحو قضية الأندلس الملتهبة في ذاك الوقت.

فكان قبوله لنجدات الأندلسيين من التهديد النصراني الخطير لبلادهم؛ من منطلق ديني أخلاقي تجاه أبناء أمته وإخوانه المجاورين لدولته، وبعد تدخله الناجح في الأندلس وصدِّ القوى الصليبية في واقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م؛ أظهر سياسة المرونة والتّريث تجاه المسألة الأندلسية الشائكة، فاستفتى

العلماء والفقهاء من نواحٍ كثيرة من البلاد الإسلامية حول شأن ملوك الطوائف المتواطئين مع الممالك المسيحية والخائنين لدينهم وبلادهم، حتى استطاع أخيرًا إزاحتهم والقضاء عليهم، ثم البدء في ضم المناطق الأندلسية إلى دولته الكبرى الممتدة على طول أقصى الغرب الإسلامي.

فهو في النهاية كما وصفه المستشرق الألماني أشباخ رجلٌ خُلق للزعامة، وجمع بين جمال الطلعة والجسم، وبين أبدع المواهب العقلية من الذكاء والرأي الثاقب، والشجاعة وبعد النظر([89])، فتمكن بقيادته الحكيمة وفطنته السياسية من توحيد المغرب والأندلس والجمع بينهما تحت حكم واحد بعد أن كانا مفترقين لقرون، ليصير يوسف بن تاشفين مَضرب المثل عند المؤرخين والعلماء في الحكم الإسلامي والسياسة الشرعية في القرن الخامس الهجري.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الأمير المرابطي وملوك الطوائف

كان من بين ما تميزت به سيرة يوسف بن تاشفين هو تعامله المتوازن مع باقي القوى السياسية المعاصرة له، ومع ملوكها ورؤسائها، فكما عُرف عن الأمير يوسف تقريبه للعلماء ومحبته وتقديره لهم؛ كذلك كان أيضًا شديد التريث مع خصومه السياسيين لا سيما ملوك الطوائف في بداية أمر تدخله في الأندلس، إذ لم يكن ابن تاشفين كأغلب القادة والسلاطين في معظم تلك الفترات، الذين يندفعون ويتقاتلون ويتنازعون بدوافع سياسية وجريًا وراء شهوة الحكم والسلطان، بل كان على عكس ذلك؛ فمنذ انطلاقه من الصحراء كان التدين وحب الإسلام والرغبة في خدمته هو غايته الكبرى.

لكن كثيرًا من الدَّارسين والباحثين وبالأخص المستشرقين ومن تخرج من مدرستهم، وضعوا شخصية يوسف بن تاشفين تحت المجهر، واختبروا سيرته المعروفة تاريخيًا بالرشاد والورع في تعاملاته السياسية مع الخصوم والمنافسين في الداخل الإسلامي، فكان تعامله مع ملوك الطوائف القضية التي أثيرت بشكل كبير في هذا السياق، إذ وصف المستشرق الهولندي دوزي معاملة ابن تاشفين للأمراء الأندلسيين بعد اعتقالهم بالقاسية والشنيعة!!([90])، فكان هذا من الكتابات القليلة التي انتقدت سيرة وسلوك الأمير المرابطي.

لكن هذا الانتقاد لم يمر هكذا؛ فقد جاء الرد من طرف الباحث المغربي عباس الجراري على هذا الانطباع السلبي لدوزي، فأعاد الأمر إلى أصله كمشكل سياسي عويص، فعندما ننظر إلى سلوك ابن تاشفين والمرابطين عمومًا تجاه أمراء الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عباد من زاوية السياسة وقواعدها، فليس هناك أي مبرر للطعن في تصرف يوسف هذا الذي يُطرح على بساط التحليل السياسي، المرتبط بما آلت إليه الأوضاع في الأندلس آنذاك.([91])

وأنا أقول بأن هذا الأمر كان طبيعيًا جدًا لشخص كيوسف بن تاشفين؛ فإذا رجعنا إلى مبتدأ العلاقة بين الأمير يوسف وملوك الطوائف فسنجد المبادرة الفعلية قد أتت من الجانب الأندلسي، وبالضبط عند المعتمد بن عباد الذي بادر بالتواصل مع الأمير المرابطي من أجل الدعم والمساعدة في مواجهة بطش النصارى المتغولين، ولم يستجب يوسف بن تاشفين بشكل كامل وفوري إلا بعد أن توافدت إلى مراكش وفود من علماء وأعيان الأندلس بعد سقوط طليطلة عام ٤٧٨هـ/١٠٨٥م، فما كان من الأهالي الأندلسيين- بعد هذا الحدث الجلل- سوى أن استصرخوا بشكل مباشر المرابطين وزعيمهم ابن تاشفين، ودعوه إلى جهاد القوى المسيحية، الأمر الذي يعني أن يوسف تحرك بطلب أهلي وشعبي، وليس بمصالح سياسية مرتبطة بأمراء الأندلس.

فكانت بعدها معركة الزلاقة التي انتصر فيها المسلمون بقيادة الأمير يوسف على النصارى، وبعد انتهائها مباشرةً عاد إلى المغرب، وأرسل بذلك رسالة إلى ملوك الطوائف مفادها أنه لا ينوي تدخلًا سياسيًا في شؤون الأندلس (مع أن هناك مبررًا قويًا لفعل ذلك)، وفي نفس الوقت كان هذا بمثابة إعطاء فرصة لأمراء الأندلس، لإصلاح أوضاعهم وإعادة النظر في أنفسهم وفي علاقاتهم مع الممالك النصرانية في الشمال.

لكن عندما جاءت مشكلة حصن لييط في عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م، التي انتهت بحصار فاشل من قبل الجيوش الإسلامية بقيادة ابن تاشفين، الذي كان قد تم استدعاؤه من جديد إلى الأراضي الأندلسية، نتيجة سياسة ملوك الطوائف المدمرة للصف الإسلامي، الأمر الذي لاحظه الأمير يوسف عن كثب، فكان هذا يعني أن ملوك الأندلس قد أضاعوا الفرصة التي منحها لهم أمير المرابطين من قبل.

فقبل التدخل المرابطي في الشأن الأندلسي؛ كان أهل الأندلس بالفعل لم يعودوا يطيقون وضع بلادهم الممزق تحت سلطان ملوك الطوائف المشؤوم، وقد جاء هذا على لسان علمائها وفقهائها، كأبي الوليد الباجي الذي كان دائمًا يدعو إلى توحيد ممالك الأندلس وإنهاء التفرقة والخصومات بين ملوكها، وكان يحذِّر من مغبة استمرار الأوضاع وعواقبها على مصير المسلمين، فكان يتلقى الترحاب في كل منطقة من أجل هدفه النبيل لتحقيق الالتحام والوحدة الإسلامية وصد العدوان النصراني المتنامي، وكان الحكام أيضًا يستقبلونه استقبالًا زائفًا في الحقيقة، فاستمر على هذا المنوال حتى توفي عام ٤٧٤هـ/١٠٨١م، وقد تمكن من زرع وجوب الاعتصام بحبل القوة والوحدة في نفوس أهل الأندلس.

وكذلك كان نظيره ابن حزم الظاهري (المتوفىسنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م) الذي كان أكثر صراحةً وجرأةً، إذ جاهر بمعارضته للوضع الطائفي في الأندلس، وانتقد بشدة ملوكها، حتى إنه لم يكن يتردد في التصريح والقدح في خيانتهم وفجورهم وموالاتهم للأعداء، وهذا ما جعله يتعرض للنفي ويُضيّق عليه، وقد اشتهر بعبارته التي قال فيها: «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرم المسلمين وأبنائهم... وربما أعطوهم المدن والقلاع طوعًا، فأخلوها من الإسلام وعمّروها بالنواقيس، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفًا من سيوفه».([92])

وهنا نرى ابن حزم قد دعا الله تعالى إلى «تسليط أحد سيوفه» على ملوك الطوائف، وكأن يوسف بن تاشفين هو «سيف الله» الذي ذكره ابن حزم في دعائه، وهو الذي قضى على أمراء الطوائف فيما بعد، وهذا أمر عظيم وجليل يُحسب ليوسف، كونه خلَّص أهل الأندلس من مصيبة وفتنة كانوا ساخطين عليها قبل عقود.

فهذا إذن يبرز مدى السخط الشعبي على حكام الطوائف في الأندلس، الذي جسدته دعوات الأندلسيين المتكررة ليوسف بن تاشفين من أجل إنقاذهم من العدوان النصراني، كما أن العلماء قد أيدوا ابن تاشفين في عزمه على خلع ملوك الطوائف، فأمدّوه بفتاوى تُجيز له هذا الأمر وتعتبره ضرورة شرعية ملحة، حتى إنه قد أتته فتاوى من البلاد المشرقية من طرف الغزالي والطرطوشي، بالإضافة إلى علماء المغرب والأندلس بطبيعة الحال.

وهكذا أصبح عند الأمير يوسف كافة الدوافع الشرعية والمبررات السياسية والأسباب الموضوعية القوية؛ من أجل حسم أمر ملوك الطوائف وخلعهم وإزالتهم، فتم ذلك بالقوة العسكرية التي اضطر إليها ابن تاشفين بعد عناد هؤلاء الأمراء ورفضهم التخلي عن عروشهم، بل ذهب بعضهم إلى الاتصال بألفونسو السادس ملك قشتالة الذي هدد في وقت سابق باجتياح الأندلس! فقام بالتالي ابن تاشفين بنفيهم إلى شمال إفريقيا وبلاد المغرب، ولم يقم حتى بإعدامهم كما جرت عليه العادة في ذلك الزمن.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن يوسف بن تاشفين لم يقض على كافة دويلات الطوائف بل ترك واحدة منها، وهي إمارة بنو هود في مدينة سرقسطة المسماة بالثغر الأعلى، وكانت ثغرًا كبيرًا في حدود القوى النصرانية، إذ دخل حكامها في طاعة المرابطين الذين بدأوا بضم الأندلس، فقرر الأمير يوسف تركها طالما أنها تنوي جهاد النصارى مع المرابطين، وهذا يعني أن سياسة ابن تاشفين في الأندلس هي الجهاد، وهدفه هو حماية كيان الإسلام الأمر الذي اتفق معه بنو هود مبدئيًا.

ويبدو أن انتقاد وتحامل كثير من المستشرقين ومن هم على شاكلتهم على تصرف الأمير يوسف بن تاشفين الحازم والعادل في حق عامة ملوك الطوائف؛ راجع في الدرجة الأولى إلى منطلقات أيديولوجية ثم منطلقات «أدبية»، فمن المعروف أن الأدب الأندلسي ازدهر كثيرًا في حقبة دول الطوائف، فكان الشعر وكافة الأشكال الأدبية الأخرى متفشيًا في ربوع دويلات الأندلس، وكان المعتمد بن عباد نفسه شاعرًا كبيرًا، وبطبيعة حال ابن تاشفين المتدينة والصحراوية فقد كان كثير الزهد عن مثل هذه الأمور، لكن هذا لم يكن دافعه وراء عزله لملوك الطوائف كما رأينا، وهو لم يكن ضد الشعر والأدب والحضارة ككل، بل على العكس من ذلك؛ فقد ازدهرت الحضارة الإسلامية في عهده كثيرًا كما سنرى لاحقًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجهاد تحت راية الخلافة العباسية

كان من أجّل ما اتسمت به سيرة يوسف بن تاشفين وسياساته هو إعلانه التبعية الاسمية للخلافة العباسية بالمشرق، التي كانت تعيش في مرحلة جديدة من مراحل ضعفها الطويل الذي ابتدأ منذ القرن الثالث الهجري/الثامن الميلادي، فهذا إجراء قلّ مثيله في التاريخ لرجل قوي أنشأ دولةً للتو؛ فأعلن بعدها الولاء لدولة الخلافة في المشرق البعيد، التي كانت قد شاخت ومرضت منذ زمن وكانت لتلفظ أنفاسها في أي لحظة!

فقَبْل ذلك؛ كان العصر الذي عاش فيه ابن تاشفين يسمى في بعض الأدبيات التاريخية والتحقيب الزمني الإسلامي بالعصر العباسي، الذي جاء بعد العهد النبوي والعصر الراشدي ثم العصر الأموي، وقد كان للخلافة العباسية في تلك القرون أهمية ورمزية كبيرة عند المسلمين بالرغم من ضعفها وعجزها الظاهر، حيث كانت حدود الدولة العباسية قد تقلصت إلى العراق، وانكمش السلطان الفعلي للخلفاء العباسيين إلى العاصمة بغداد وما حولها، لكن حضورهم الاسمي كان يغلب على كثير من الدول الإسلامية الناشئة في عصرهم.

وكانت دولة المرابطين هي إحدى هذه الدول التي اعترفت بالمكانة الرمزية لخلافة بني العباس، إن لم تكن أكثرها ارتباطًا بها على مستوى المبادرة، حتى إن الأمر كان قد تداوله المرابطون مع بزوغ جماعتهم وتوسعهم في المغرب الأقصى، وتؤكد الدراسات أن المرابطين اعترفوا بسلطة الخلافة العباسية في وقت مبكر، ففي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م أي في عهد أبي بكر بن عمر اللمتوني ضرب المرابطون السكة وكتبوا إلى جانب اسم الأمير أبي بكر في نفس السنة اسم (عبد الله أمير المؤمنين) ومن المرجح أن المقصود هو خلفاء بنو العباس المعاصرين للمرابطين([93]).

وفي هذا دليل على كون حركة المرابطين ومشروعهم بعيدًا عن الأهداف والمصالح السياسية الضيقة، بل كان من ورائها دعوة إحيائية وإصلاحية لإعادة الاعتبار للإسلام ووحدة المسلمين، وهذا الذي بنى عليه يوسف بن تاشفين دولته العظمى، وقد كان بداية اتصاله الفعلي مع الخلافة العباسية حينما انتهى من توحيد المغرب الأقصى وتمدده إلى المغرب الأوسط، إذ اجتمع عنده الأعيان والوجهاء والفقهاء وحثوه على إعلان الخلافة لكونه صاحب الشوكة الأقوى كما جرت عليه العادة في ذلك الزمان، إلا أنه رفض وأظهر إشارةً إلى العباسيين وأحقيتهم الشرعية والتاريخية بذلك.

فالعباسيون من سلالة العباس بن عبد المطلب عم النبي عليه الصلاة والسلام، وهم في نظر ابن تاشفين يستحقون الاحتفاظ بالخلافة بالرغم من سوء أمرهم منذ مدة، وعجزهم عن الاحتفاظ بحكمهم، وقد رآى في هذا الأمر ضرورة من أجل الوحدة والالتحام مع المشرق الإسلامي، ليبادر بالاتصال بالخليفة العباسي المقتدي بالله عام ٤٧٩هـ/١٠٨٦م، بحسب ما يروي جلال الدين السيوطي الذي قال: «وفي سنة تسع وسبعين: أرسل يوسف بن تاشفين صاحب سبتة ومراكش إلى المقتدي يطلب أن يسلطنه، وأن يقلده ما بيده من البلاد، فبعث إليه الخلع والأعلام والتقليد»([94]).

وهذا العام بالضبط هو عام معركة الزلاقة الكبرى؛ التي انتصر فيها المسلمون على النصارى بقيادة الأمير يوسف في بلاد الأندلس، التي أفرحت المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وجعلت صيت

ابن تاشفين يذيع في العالم الإسلامي، مما وطد العلاقات بين بغداد عاصمة الخلافة العباسية ومراكش قاعدة دولة المرابطين ويباركها كلا الطرفين.

فخاض يوسف بن تاشفين بعد ذلك جهاده في الأندلس تحت راية الخلافة العباسية، وأزال حكم ملوك الطوائف ووحد البلاد بعد أن أنقذها من الاكتساح الصليبي، فقام بالدعاء للخليفة العباسي بصفته أميرًا للمؤمنين في منابر الأندلس والمغرب، وقام المرابطون بسك عملتهم متضمنة أسماء الخلفاء العباسيين، فكان هذا إعلانًا رسميًا لتبعية دولة المرابطين الاسمية للخلافة العباسية في المشرق.

أدى اعتراف يوسف بن تاشفين بخلافة بني العباس إلى عودة الأخيرة إلى بلاد المغرب والأندلس، بعد انقطاع دام أكثر من ثلاثة قرون، حيث ألغيت الخلافة العباسية في الأندلس بعد قيام الإمارة الأموية فيها على يد عبد الرحمن الداخل الأموي سنة ١٣٨هـ/٧٥٦م، وفي المغرب أو المغرب الأقصى تحديدًا -بشكل قطعي- بعد تأسيس الدولة الإدريسية عام ١٧٢هـ/٧٨٨م، من طرف إدريس بن عبد الله العلوي، فعادت الخلافة العباسية إلى هذين القطرين؛ لكن بطريقة غير مباشرة وبحضور اسمي فقط، وقامت الدعوة لها على منابر الغرب الإسلامي في كل من المغرب والأندلس، كما كان الأمر من قبل بعد قيام الدولة العباسية في المشرق سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م.

وليوسف الفضل الكبير في هذا لحبه لأمر الخلافة وسعيه إلى وحدة الأمة الإسلامية، فهو رجل يحترم مقام الخلفاء العباسيين لكونهم من سلالة العباس عم النبي ﷺ، وآل بيته القرشيين أصحاب النسب الطاهر والإمامة وخلافة المسلمين، واتخذ يوسف شعار السواد في لواء الدولة المرابطية؛ وهو الشعار نفسه عند العباسيين، ويمثل اللون الأسود رمزًا للوحدة الإسلامية التي تناشدها خلافة بغداد، وحققها يوسف بن تاشفين من جانبه في منطقة المغرب الإسلامي.

وكما تمت الإشارة إليه فقد كان الفرق هائلًا بين الجانبين؛ فخلافة بغداد كانت ضعيفة جدًا وهي تحت وصاية السلاجقة، وفي المقابل كانت دولة المرابطين في أوج قوتها، وكان الأمير يوسف يفرض سلطانه على مناطق شاسعة في الغرب الإسلامي من الصحراء الكبرى مرورا بالمغرب الأقصى إلى الأندلس، إضافة إلى القسم الغربي من المغرب الأوسط، لكن بحكم تواضع يوسف وحبه لدينه وأمته فقد هدف إلى رد الاعتبار للخلافة الإسلامية والإقرار بها عند بني العباس، حيث كرس حياته للجهاد تحت رايتهم؛ راية الإسلام.

فكانت النتيجة عودة حضور (اسمي) للخلافة العباسية إلى أقطار بلدان الغرب الإسلامي، بمبادرة فعالة من المرابطين وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين، الأمر الذي سيؤدي به إلى تلقيب نفسه بأمير المسلمين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

لقب «أمير المسلمين»

كان لقب «أمير المسلمين» هو اللقب الذي انفرد به يوسف بن تاشفين كأول من تسمى به في التاريخ، وكان النتيجة المباشرة لإعلان المرابطين التبعية الاسمية للخلافة العباسية، فقد عرض الفقهاء والأعيان ببلاد المغرب والأندلس على الأمير يوسف- كما مر معنا- بعد قوة شوكته واشتداد أمره؛ أن يتقلد منصب الخلافة وأن يلقب نفسه «أمير المؤمنين»، لكنه رفض الأمرين معًا، فقام بدلًا منهما بإعلان التبعية للخلافة العباسية وتسمية نفسه بأمير المسلمين، نظرًا لكون لقب أمير المؤمنين خاصا بالخليفة العباسي في ذلك الوقت.

فكان الأمر كما يوضحه صاحب كتاب (الحلل الموشية)، الذي ذكر في كتابه هذا بأن «يوسف بن تاشفين كان يدعى بالأمير، فلما ضخمت مملكته، واتسعت عمالته، اجتمع إليه أشياخ لمتونة، وأعيان دولته، وقالوا له: أنت خليفة الله في هذا المغرب، وحقك أكبر أن تدعى بالأمير، بل ندعوك أمير المؤمنين، فقال لهم: حاشا الله أن نتسمى بهذا، إنما يتسمى به خلفاء بنو العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، لأنهم ملوك الحرمين: مكة، والمدينة، وأنا رجلهم، والقائم بدعوتهم، فقالوا له: لابد من اسم تمتاز به، وبعدها أجاب إلى (أمير المسلمين وناصر الدين)»([95]).

ولقب «ناصر الدين» هذا هو الاسم المرادف للقب «أمير المسلمين»، وكان على عادة الملوك والأمراء والخلفاء في البلاد الإسلامية التسمية بهذه الألقاب، بعد أن بدأها الخلفاء العباسيون وسار عليها بقية الأمراء والسلاطين في بقية الدول الإسلامية المتعاقبة في كل أقطار الأمة، وقد أردفه ابن تاشفين للقبه الأول، فكان في الحقيقة اسمًا على مسمى وليس مجرد اسم للتباهي الفارغ.

فالأمير يوسف بالفعل ناصر الدين الإسلامي في بلاد المغرب، التي حارب فيها الطوائف المنحرفة ووحَّد بها القبائل المتناحرة، ثم في الأندلس التي جاهد بها العدو النصراني المعتدي وقضى على سلطان ملوك الطوائف المشتت لكلمة المسلمين، وأنقذ بذلك البلاد الأندلسية ووحد أقاليمها مع بلاد المغرب في دولة واحدة تقوم على الإسلام الصحيح وعلى منهاج السنة والجماعة.

وبطبيعة الحال كان لقب «أمير المسلمين» اسما على مسمى أيضًا؛ فابن تاشفين كان أميرًا على المسلمين المغاربة والأندلسيين الذي وحّدهم وأنقذهم وجدد لهم أمر الدين والدولة، وكان هذا اللقب هو الأول من نوعه عندما تسمى به الأمير يوسف، وقد أبرز ابن عماد الحنبلي هذابكونه أول من تسمى بأمير المسلمين، وأخذ به عزة سلطانه حتى وفاته([96])، فتسمى به باقي أمراء وحكام دولة المرابطين، بل حتى سلاطين آخرين في دول جاءت في وقت لاحق في تاريخ المغرب.

وبعد اتخاذ يوسف بن تاشفين لهذا اللقب؛ نسجت العلاقات بين الدولة المرابطية والخلافة العباسية، فتبادل الخليفة العباسي مع المرابطين السفارات، فأرسل ابن تاشفين سفارته إلى الخليفة المقتدي التي تحدث عنها ابن خلدون في معرض كلامه عن الموضوع حيث قال: «وتسمى بأمير المسلمين، وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد، وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الأشبيلي وولده القاضي أبا بكر، فتلطفا في القول وأحسنا في الإبلاغ، وطلبا من الخليفة أن يعقد له

على المغرب والأندلس، فعقد له وتضمن ذلك مكتوب الخليفة بذلك منقولا في أيدي الناس وانقلبا إليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظر من الأقطار والأقاليم»([97]).

وكعادة الأمير يوسف فقد جعل في سفاراته هذه العلماء والفقهاء؛ كرسالة حضارية إسلامية إلى الخلفاء العباسيين في بغداد بكون اتصاله معهم على أساس الدين والحضارة الإسلامية ووحدة الأمة، الأمر الذي قابله العباسيون بدورهم باستحسان وترحيب كبير بالرغم من بعدهم عن مراكش.

ويذهب المؤرخون في الغالب، إلى كون الأمير يوسف قد اتخذ لقب أمير المسلمين بعد معركة الزلاقة وبداية جهاده وتدخله في الأندلس، كما عند علي بن أبي زرع الفاسي الذي يقول: «وكان يدعى بالأمير وعندما فتح الأندلس وصنع غزاة الزلاقة وأذل الله تعالى بها ملوك الروم بايعه في ذلك اليوم ملوك الأندلس وأمراؤها الذين شهدوا معه تلك الغزاة، وكانوا ثلاثة عشر ملكًا، وسلموا عليه بأمير المسلمين»([98]).

وقد قام ابن تاشفين بعدها بوضع اسم الخليفة العباسي، على النقود بعد ضرب السكة إلى جانب اسمه ولقبه أمير المسلمين، حيث يذكر ابن الخطيب هذا الأمر ويقول: «كان درهمه فضة، وديناره تبرًا محضًا، في إحدى صفحتيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، وتحت ذلك «أمير المسلمين يوسف بن تاشفين»، وفي الدائرة [ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين]، وفي الصفحة الأخرى «الإمام عبد اللـه أمير المؤمنين» وفي الدائرة «تاريخ ضربه وموضع سكه»»([99]).

وهذا يعد من الشواهد الأثرية على هذه الصلة الوثيقة بين يوسف بن تاشفين وبني العباس، التي اتخذ على إثرها لقب أمير المسلمين وتميز به على المستوى التاريخي، وقد تم بالفعل العثور على قطع نقدية مرابطية أثرية تفيد هذا الموضوع، بالإضافة إلى أن الدعاء على منابر المساجد في كل من المغرب والأندلس في خطب الجمعة؛ كان يتضمن إلى جانب الدعاء للأمير المرابطي (أمير المسلمين) الدعاء كذلك للخليفة العباسي (أمير المؤمنين)، فكان الأمر يعد الأول من نوعه حيث يتم استحضار كلا اللقبين، فأمير المؤمنين لقب قديم درج على استعماله خلفاء المسلمين سيرًا على سنة عمر بن الخطاب الذي كان أول من استعمله، أما لقب أمير المسلمين فهو مستحدث على يد يوسف بن تاشفين الذي يعد أول من استخدمه.

وكان وراء التسمية بهذا اللقب أيضًا؛ بُعد نظره إلى الأمور، حيث ربما كان سيُتهم باغتصاب الخلافة -ولو اسميًا- إذا ما زعم نفسه خليفةً وأميرًا للمؤمنين، وهنا جاءه الاسم الآخر وهو «أمير المسلمين» الذي يتيح له نوعًا من الشرعية السياسية بالتبعية للخلافة الإسلامية في المشرق والعمل تحت رايتها، وحتى هذا الاسم لم يَتسمَّ به هو الآخر إلا بعد أن استشار الخليفة العباسي نفسه، بإرساله البعثة إلى المقتدي بالله يستأذنه في جواز حمل هذا اللقب، فعرض هذا الأخير الأمر على الفقهاء بزعامة الإمام الغزالي سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م، فأفتوا جميعًا باستحقاق يوسف لهذه التسمية، لا سيما بعد النصر الذي أحرزه في الزلاقة.([100])

وقد حرص الخليفة العباسي على أن يرد بنفسه على خطاب يوسف، لكون هذا الخطاب مكسبًا معنويًا كبيرًا، فصارت دولة المرابطين سندًا قويًا روحيًا للخلافة العباسية، وبذلك تكون قد نفَّذت أوامر ربها واسترشدت بتوجيهات نبيها، لتصبح جزءًا من الخلافة التي اكتفت منها بالطاعة المعنوية نتيجة

اعتراف أمراء المرابطين وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين بخلافة بني العباس، حيث كانوا يعتقدون اعتقادًا راسخًا أن مُلكهم لن يُعتبر مشروعًا إلا إذا باركته الإمامة القرشية.([101])

وهكذا فإن الأمر برمته تم بفضل خصال يوسف بن تاشفين، التي لا تدفعه إلى المصالح الدنيوية والأطماع السياسية؛ بل كان رجاؤه هو مرضاة الله والثواب الأخروي، فهو في النهاية رجل وضع الدين والأمة فوق كل الأولويات، وكان يحرص على نصرة السنة ووحدة الأمة وجهاد أعدائها ورد كيدهم، فكان لقب «أمير المسلمين» من ثمرات أعماله الناجحة التي خلدها التاريخ، فكان أن استحق هذا اللقب بكل جدارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

يوسف بن تاشفين وعصره

لكي تتضح الصورة التاريخية الكاملة ليوسف بن تاشفين؛ فلا بد من إلقاء نظرة حول الظروف العامة التي كانت قد أحاطت بتجربته سواءً من قريب أو من بعيد، من الناحية الإقليمية فيما يتعلق بأوضاع بلاد المغرب وشمال إفريقيا ثم الأندلس أومأ يصطلح عليه بالغرب الإسلامي عمومًا، وقد أشرنا إلى شيء من هذا في إطار تحركات ابن تاشفين وبروز دولة المرابطين كقوة كبرى في هذه المَوَاطن؛ ثم كذلك من ناحية العالم الإسلامي الذي يشكل وحدةً جغرافيةً وحضاريةً مرتبطة أجزاؤها ومتصلة أقطارها، وكان أمةً واحدة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، ثم أخيرًا ظروف أوروبا المسيحية التي كانت الخصم والمنافس التاريخي للعالم الإسلامي، الذي كانت تشاركه في كثير من نقاط التماس والصدام والاحتكاك الحضاري، وقد وقف يوسف بنفسه في إحدى هذه النقاط.

فقبل قيام دولة المرابطين، كانت منطقة الشمال الإفريقي وبلاد المغرب الكبير في وضع مهلهل، حيث التمزق والانقسام والتشرذم على أشدّه جراء الآثار التي خلفها العبيديون بعد نقلهم لدولتهم إلى المشرق، فالدولة الفاطمية لم تستطع أن توحد بلاد المغرب فلجأت إلى تدميره، نتيجة حملاتها المتكررة على المغرب الأقصى لإخضاعه ومواجهة الأمويين الأندلسيين فيه، وبعد يأسها من الأمر انتقلت إلى مصر وتركت وراءها المغرب في حالة سيئة.

ومنذ عمليات الفتح الإسلامي التي استطاعت توحيد أقطار بلاد المغرب مع الأندلس لفترة وجيزة، سرعان ما انهارت هذه الوحدة بانهيار الخلافة الأموية في دمشق ومجيء العباسيين، الذين لم يستطيعوا الحفاظ على سلطانهم في مجمل الغرب الإسلامي الذي بدأ يستقل عن السلطة السياسية للخلافة العباسية في المشرق، فانفصلت الأندلس بزعامة بنو أمية، ثم تلتها بلاد المغرب التي ظهرت فيها إمارات مستقلة بعد الثورات المتتالية للخوارج، ثم وصول الأدارسة بعدها وتأسيسهم دولتهم الخاصة في المغرب الأقصى.

وفي المغرب الأدنى استطاع الأغالبة إقامة إمارتهم التابعة للخلافة العباسية، وكانت تمثل حدود الدولة العباسية في المغرب الإسلامي، وتشكل في نفس الوقت أحد الأقطاب الحضارية الثلاث المتمركزة بالغرب الإسلامي في تلك الفترة (القيروان- فاس- قرطبة)، هذا قبل أن تظهر الدعوة الفاطمية والقوة العبيدية التي ستطيح بالأغالبة في إفريقية وتقضي على إمارة الرستميين في تاهرات بالمغرب الأوسط، ثم تضرب المغرب الأقصى وتهاجم فاس مرات عديدة، وذلك بعد أن أنهت إمارة بني مدرار في سجلماسة، وتذهب بالتالي صوب الشمال وتتحرش بحدود الأندلس الجنوبية وتضايق الدولة الأموية فيها.

فكانت النتيجة القضاء على أربع إمارات مستقرة في إفريقيا الشمالية: الأغالبة والرستميين والمدراريين ثم الأدارسة، الذين سيتقهقرون وسيختفون بالتدريج بعد أن فقدوا حاضرتهم فاس، وكان الأمر أشبه بزلزال ضرب المنطقة برمتها، لا سيما وأن الأمر تعدى المطامع السياسية إلى مشروع الإحلال العقدي المذهبي، فالدولة العبيدية تتبنى العقيدة الإسماعيلية الباطنية إحدى فروع التشيع الرافضي، الذي شنت بها حربًا شعواء على السنة والجماعة بالشمال الأفريقي، الأمر الذي خلف

فوضى عقدية ومذهبية طائفية في المنطقة، لا سيما في المغرب الأقصى الذي كان يعج بالنِحل المتنوعة وقت وصول المرابطين إليه.

وبعد انتقال الفاطميين إلى مصر؛ تركوا المغرب الأدنى والأوسط تحت سيطرة أتباعهم الزيريين والحماديين، الذين هم من صنهاجة نفس قبيلة يوسف بن تاشفين والمرابطين، وعندما قامت الدولة المرابطية كانت مدينة الجزائر الحد الفاصل بين المرابطين والحماديين في شرق المغرب الأوسط وبني زيري في المغرب الأدنى وإفريقية، ولم يكن هناك أي خلاف عقدي بين هؤلاء الأقرباء جميعًا، إذ إن الكل من أهل السنة والجماعة، وذلك بفضل الأمير الزيري المعز بن باديس الذي أقدم في عام ٤٤٠هـ/١٠٤٨م على التمرد ضد العبيديين الشيعة وأعلن السنة ورفض التشيع الإسماعيلي وقطع بذلك الخطبة للفاطميين وحولها إلى العباسيين، مما أدى بالدولة الفاطمية إلى التفكير في الانتقام فأرسلت عرب بني هلال وبني سليم البدويين إلى إفريقية والمغرب الأدنى، فخربوها ودخلوا القيروان ونهبوها بعد الانتصار على الزيريين في معركة حيدران ٤٤٣هـ/١٠٥١م، مما أدى بهؤلاء العربان إلى الانتشار في أراضي المغرب الأدنى والأوسط.

وفي نفس الوقت كانت جزيرة صقلية الإسلامية تقاوم باستماتة الضربات الصليبية للنورمان القادمة من جنوب إيطاليا، التي كانت بمباركة من بابا روما، وذلك بعد أن شهدت الجزيرة حالة من الانقسام بين المسلمين في وضع أشبه بأمر طوائف الأندلس، وقد استولى النورمان على شمال الجزيرة والعاصمة بلرم عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م، وبدأ الزحف النصراني الصليبي يلتهم بقية المناطق إلى غاية ٤٨٤هـ/١٠٩١م، التي أتم فيها النورمان احتلالهم الكامل لصقلية على يد ملكهم روجر، فتوجهت أنظار هؤلاء النصارى النورمان إلى سواحل شمال إفريقية، فشنّ النورمان حملات على شواطئ المغرب الأدنى فاستولوا على طرابلس وتونس والمهدية، مما أنهى سلطة الزيريين الواقعين بين مطرقة النورمان وسندان العرب الهلالية من الوجود.

أما الأندلس فحالها معروفة كما أشرتُ إليه سابقا من تفكك وتشرذم واقتتال بين المسلمين هناك، بعد ضعف الخلافة الأموية وسقوط الدولة العامرية الوصية عليها، ثم اندلاع الفتنة بين الأندلسيين التي انتهت بزوال الخلافة الأموية عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م، وتقسيم البلاد على شكل دويلات على رأس كل منها أمير أو ملك تسمّوا بملوك الطوائف، وهم المعروفون بنزاعاتهم البينية وتعاملهم مع النصارى الذين استغلوا هذا الوضع الكارثي للمسلمين، فاستأنفوا بالتالي حروبهم الصليبية وتوسعاتهم في الشمال الأندلسي إلى أن سقطت طليطلة في يدهم.

فكان هذا هو الظرف التاريخي الذي أصاب منطقة الغرب الإسلامي في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، الذي جعل دولة المرابطين تظهر بكونها أول دولة كبرى تسيطر على مساحات شاسعة في المنطقة، وتوحد بين قطري المغرب والأندلس وتنهي حالة الانقسام والفوضى والاضطراب فيها على يد يوسف بن تاشفين.

ولم يكن هذا الوضع القلق في هذه الحقبة خاصًا ببلاد الغرب الإسلامي فقط بل كان المشرق الإسلامي أيضًا يعاني من نفس الأوضاع، فقد ضعفت الخلافة العباسية ولم تعد تسيطر إلا على عاصمتها بغداد وما حولها من منطقة العراق، وقد خاضت مواجهات من قبل مع الدولة الفاطمية التي انتقلت من المغرب إلى مصر وأعلنت خلافتها في القاهرة وسيطرت على بلاد الشام والحجاز، قبل أن تضمحل

وتهن في القرن الخامس الهجري وتلحقها مصائب وفواجع، مثل الشدة المستنصرية التي أصابتها منتصف هذا القرن، وكانت مجاعة فظيعة أهلكت الحرث والنسل وخربت الاقتصاد المصري.

أما عن الدولة العباسية فقد كانت في مرحلة جديدة من الضعف المستشري فيها منذ القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، الذي انتهى فيه طور الخلفاء الكبار بظهور العسكر التركي في بغداد وإمساكهم بمقاليد الحكم، ولكن الأمر سيزداد سوءًا ببروز البويهيين وسيطرتهم على الخلافة في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي، وكانوا شيعة غلاة فأساءُوا الأمور واستبدوا بالخلافة العباسية، في وقت كانت فيه بقية أجزاء بلدان الشرق الإسلامي تنفصل سياسيًا عن دولة الخلافة بظهور دول جديدة مثل الدولة الصفارية والدولة السامانية ثم دولة الغزنويين التي نشأت في مناطق خراسان و بلاد ما وراء النهر في الشرق الإسلامي و قامت بفتح الهند، هذا بالإضافة إلى دول وإمارات أخرى نشأت في محيط الدولة العباسية القريب في الشام ومصر كالدولة الطولونية والإخشيدية والحمادية...

فكان هذا ما جعل الخلافة العباسية تعاني الأمرَّين خصوصًا والحركات الباطنية قد ظهرت في جسدها، وكانت شرًا مستطيرًا، فالقرامطة في شرقي شبه الجزيرة العربية يضربون كل مرة في جنوب العراق وبلاد الشام، وجاءت بعدهم فرقة الحشاشين الباطنية التي تمارس الاغتيالات لقادة ورموز السنة، مما زاد بلاد المشرق الإسلامي تمزقًا لا سيما ومزيد من الدويلات تظهر في الشام والجزيرة واليمن، الأمر الذي استغله الروم البيزنطيون فشنُّوا بذلك حملات مضادة على المسلمين في آسيا الصغرى وشمالي العراق وبلاد الشام، حتى باتوا يهددون بغداد وبيت المقدس.

وقد تحسنت الأمور كثيرًا بمجيء السلاجقة من بلاد خراسان واتجاههم إلى العراق وقضائهم على السلطنة البويهية الواصية على العباسيين، ثم التقدم إلى بلاد الشام والحجاز وتحريرها من سطوة المذاهب الباطنية التي تمددت بفعل الفاطميين والبويهيين، فتم إحياء السنة من جديد ببلاد المشرق، وكذلك تمكنت الدولة السلجوقية بقيادة السلطان ألب أرسلان من التصدي للقوات البيزنطية في معركة ملاذكرد عام ٤٦٣هـ/١٠٧١م، وهزيمتهم وأسر إمبراطور الروم نفسه رومانوس الرابع، الأمر الذي أدى إلى انسياح المسلمين في الأناضول فاتحين معظم مناطقه.

لتعيش بغداد بعدها تحت الوصاية السلجوقية، التي استعادت وحدة الكثير من أراضي المسلمين في المشرق، وهو تقريبا الأمر الذي فعله المرابطون في المغرب، يضاف إلى ذلك أن الدولتين السلجوقية والمرابطية كانتا تابعتين للخلافة العباسية، وقامتا فوق كل ذلك بالتصدي للقوى الصليبية المعادية.

وكانت الجبهتان: جبهة المشرق الإسلامي وجبهة الأندلس تتعرضان في هذه الحقبة لحملات صليبية غير مسبوقة من طرف أوروبا المسيحية، التي كانت منذ بداية الأمر في صراع طويل مع العالم الإسلامي خاصةً بعد توقف الفتوحات الإسلامية باتجاهها، الأمر الذي حفز الكنيسة الرومانية وكذلك الكنيسة البيزنطية للانتقام وطلب الثأر، فكان القرن الحادي عشر للميلاد هو عصر تجدد الروح الصليبية الأوروبية، وإن كان البيزنطيون قد سبقوا اللاتينيين في حملتهم الواسعة على المسلمين في القرن العاشر للميلاد، إلا أنه في أوروبا القرن الحادي عشر حاولت البابوية أن ترسخ نفوذها بشكل أكبر ووظفت المسيحية في طموحها هذا.

فبدأ الأمر بالبابا غريغوري السابع الذي أخضع الإمبراطور الألماني وأثبت قوة الكنيسة الكاثوليكية- التي كانت في نزاع دائم مع الإمبراطورية الجرمانية المقدسة- في أوروبا، فازداد نفوذها كثيرًا خاصة في الأندلس، فشجعت ملوك وأمراء الممالك النصرانية في الشمال هناك على الإتحاد باسم البابا والكنيسة، فشن النصارى بالتالي حملاتهم الصليبية على المسلمين المتفرقين في عهد ملوك الطوائف، الذين سرعان ما تراجعوا، ونجح المسيحيون في التقدم حتى انتزعوا مدينة طليطلة، وكانت -كما مر معنا- الحافز الرئيسي الذي جعل ابن تاشفين وقوات المرابطين يتدخلون في الأندلس.

وفي البلاد المشرقية كان البيزنطيون هم من قادوا الهجمات الصليبية المضادة على المسلمين المنقسمين بين دويلات صغيرة وإمارات متصارعة في كل من الشام والجزيرة الفراتية، لكن الأمر تغير بظهور السلاجقة وقضائهم على البويهيين في منتصف القرن الخامس الهجري، وفرض حكمهم على بغداد العباسية على يد سلطانهم طغرل بك، فتم بعدها توحيد بلاد الشام والحجاز ودحر العبيديين وإرجاعهم إلى مصر، ما جعلهم يتفرغون لمواجهة الروم الذين كانوا يعدون لحملة واسعة من أجل احتلال شامل لبلدان المشرق، فحُسم الأمر في معركة ملاذكرد الكبرى ٤٦٣هـ/١٠٧١م، التي لا تقل أهمية عن الزلاقة، فهُزم فيها البيزنطيون وأُسر الإمبراطور الرومي وتقدم السلاجقة الأتراك فاتحين في الأناضول، الأمر الذي كان بمثابة صدمة للدولة البيزنطية وكنيسة القسطنطينية، فاستنجدت بأوروبا وبابا روما، بالرغم من الخلاف القائم بين الكنيستين، فهؤلاء كاثوليك وأولئك أرثوذكس؛ إلا أن الوضع أصبح يستدعي وحدةً صليبية ضد التقدم الإسلامي السريع في الأناضول.

كما اجتمعت عوامل أخرى من أجل البدء في إعلان حرب صليبية أوروبية لاتينية على المشرق الإسلامي، فبالإضافة إلى طموح البابوية نحو السيطرة الكاملة على الغرب الأوروبي وتضاعف سكان هذه القارة في هذه الفترة، ونزاعات الأمراء الفيوداليين مع بعضهم البعض وظهور ملوك وأباطرة ذوي أطماع سياسية عالية؛ الأمر الذي أقلق البابوية وشغلها كثيرًا فقررت صرف جميع هذه القوى خارج أوروبا وبتوجيه منها، لا سيما وقد جاء النداء أخيرًا من الكنيسة الشرقية نفسها ومن طرف الإمبراطور البيزنطي بعينه والمهدد من قبل السلاجقة المسلمين.

فانعقد بالتالي مجمع كليرمونيت بفرنسا عام ١٠٩٥م، الذي دعا فيه البابا أوربان الثاني (تلميذ غريغوري السابع) إلى شنِّ حرب مقدسة على الأراضي الإسلامية في الشرق، بعد أن أثار أكاذيب وأباطيل حول كون المسلمين يضطهدون الحجاج المسيحيين، فدعا إلى ما سماه بتحرير «قبر المسيح» من المسلمين([102])، فجيّش بالتالي عواطف النصارى من الغوغاء والرعاع كما منّاهم بالغفران والجنان، فتجمع هؤلاء النصارى في حملة بقيادة بطرس الناسك متوجهة نحو آسيا الصغرى، لكنها سُحقت بسهولة على يد السلاجقة، وفي الآن نفسه بدأت حملة الأمراء بالاستعداد والتجهيز في حملة نظامية بزعامة نبلاء وإقطاعيي أوروباالتي سوف تخترق البلقان وأراضي بيزنطة، وتصل إلى الأناضول وتهزم سلاجقة الروم، وتتوجه إلى الشام وفلسطين، حيث ستسقط القدس في يدهم عام ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، بعد أن ارتكبوا فيها مذابح عظيمةً وقتلوا سكانها المسلمين.

ففي الوقت الذي كان فيه يوسف بن تاشفين والمرابطون يتقدمون في الأندلس ويحكمون سيطرتهم عليها؛ كانت فلسطين وبيت المقدس قد سقطت في يد الصليبيين بعد أن غرقت في دماء أهلها، وتبع ذلك إنشاء إمارات صليبية في بلاد الشام والجزيرة الفراتية، كإمارة الرها وأنطاكية ثم مملكة بيت

المقدس. وما كان الأمر ليصل إلى هذا الحد لولا الانقسام الذي دبّ فجأةً في جسد دولة السلاجقة الكبرى التي كانت مسؤولة عن المنطقة، وذلك بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م.([103])

وهذه كانت مجمل الظروف التي عاصرها ابن تاشفين، أو التي سبقت عهده ومهدت لعصره، ففي كل الأحوال المذكورة كانت الخلافة الإسلامية العباسية ضعيفة، وكانت الدول الإسلامية تسقط وتقوم مكانها دول أخرى، وكان أيضًا هذا القرن ذروة الصراع بين الإسلام والنصرانية في كل من المشرق والأندلس، إلا أن الاختلاف الكبير كان واضحًا بين العالم الإسلامي الذي يعرف حضارةً وتقدمًا وازدهارًا بالرغم من الأحداث السياسية؛ وأوروبا المسيحية التي كانت تعيش آثار الفيودالية وهيمنة الكنيسة على المناخ العام، الأمر الذي جعل أوروبا تعيش تخلفًا في قرونها الوسطى التي عُرفت عند الأوروبيين فيما بعد بعصور الظلام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

العلماء وحضارة الإسلام في عهد ابن تاشفين

إن العصر الذي عاش فيه يوسف بن تاشفين هو العصر الذي تجددت فيه الحضارة الإسلامية في المشرق والمغرب، فالقرن الخامس الهجري عُرف في تاريخ حضارة المسلمين بحقبة التجديد والانطلاقة من جديد في مختلف مناحي حضارة الإسلام، ابتداءً من العلوم والمعرفة وليس انتهاءً إلى العمران والتمدن.

كما أن المعلوم في يوسف بن تاشفين أنه أعاد بناء الدولة الإسلامية في المغرب والأندلس بعد أن كانت قد اضمحلت وتمزّقت، فكانت دولة المرابطين هي الدولة التي جددت الشأن السياسي للمسلمين في هذه البلاد، وبتجديد الكيان السياسي والدولة يتجدد أيضا المجتمع والحياة العامة للناس، مما يجعل أمر الحضارة والثقافة تنبعث من جديد وتأخذ منحاها الطبيعي في الإسلام.

فالمرابطون في المقام الأول حركة تأسست على العلم والجهاد، وكان صاحبها هو العالم والفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي، وهو معلم وشيخ يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين، وابن ياسين هو الذي حوَّل قبائل صنهاجة القاطنة في صحراء بلاد المغرب إلى قوة ضاربة عن طريق الدعوة وتعليم الإسلام بمنهجه السليم، وبالتالي كان العلم الشرعي هو المقوم الأول في بناء دولة المرابطين على يد ابن تاشفين، ثم تلته باقي العلوم والحقول المعرفية بعد إقامة الدولة وبناء عاصمتها مراكش، التي صارت من أهم حواضر العالم الإسلامي بعد ذلك.

وبعد التوسع المرابطي في بلاد المغرب ارتبطت مدينة مراكش مع باقي المدن المغربية، كفاس التي كانت أولى الحواضر الإسلامية بالمغرب الأقصى وبها جامعة القرويين أولى الجامعات الإسلامية والعالمية، ثم مدينة مكناسة ثم سبتة وطنجة، التي ازدهرت حضاريًا بعد أن اختفى الانقسام والتشرذم والتناحر الذي كان بين هذه الحواضر جميعا.

حيث عادت الطرق التجارية نحو الانتعاش بفعل سيطرة المرابطين وحكم ابن تاشفين للبلاد، لا سيما تلك الخاصة بقوافل تجارة الصحراء التي انطلق منها المرابطون ومددوها جنوبًا نحو الغرب الإفريقي على يد أبي بكر بن عمر اللمتوني، الذي فتح هذه المناطق وربطها بالشمال الإفريقي، فأصبحت بالتالي خطوط التجارة ممتدة على نطاق واسع في الغرب الإسلامي، فعلى سبيل المثال ارتبطت مدينة أودغست الصحراوية بسجلماسة في المغرب الأقصى ثم تلمسان ووهران في المغرب الأوسط، بالإضافة إلى مدن الأندلس التي ستصير جزءًا من هذه الحركة الاقتصادية بعد عبور المرابطين إليها.

وفي الأندلس التي استطاع الأمير يوسف إزاحة حكم ملوك الطوائف عنها وإنقاذها من الاجتياح النصراني، ليوحد هذه البلاد مع المغرب ويربط اقتصادها مع الاقتصاد المغربي؛اتصلت الموانئ التجارية الأندلسية مثل ألميرية ومرسية وبلنسية مع نظيراتها المغربية في رباط تجاري بحري وثيق للغاية.

والأندلس هذه التي كانت على الدوام مركزًا للحضارة الإسلامية ونبراسًا لها، كانت في عهد المرابطين في مرحلة جديدة من التحضر الإسلامي، وليس صحيحًا ما روج له الكثير من الكتّاب

حول كون يوسف بن تاشفين والمرابطين قد أثروا بشكل سلبي على مناحي حضارية عديدة في الأندلس، التي كانت قد ازدهرت في فترة ملوك الطوائف، وقد احتجوا في ذلك بكون المرابطين في الأصل أصحاب بداوة صحراوية وليس لهم حضارة مدنية، ولا شكّ أن المرابطين قد انطلقوا من صحراء بدوية إلا أنهم بناة حضارة، وقد استطاعوا فتح بلاد المغرب والمحافظة على مدنه، بل وقد شيَّدوا واحدة أخرى وأضافوها إلى حضارة المغرب الإسلامية؛ وهي مدينة مراكش العظيمة التي صارت عاصمةً لدولتهم، وهذا كله قبل أن يصلوا إلى الأندلس.

كما أن الحركة العلمية استمرت في تقدم كبير بعد السيطرة المرابطية على المغرب والأندلس ولم تتوقف، حيث كانت الريادة للعلوم الشرعية والفقه المالكي، وإلى جانبها باقي العلوم كالطب والحساب واللغة والفلسفة، وقد أسس ابن تاشفين لمرحلة جديدة من تطور هذه العلوم الدينية والدنيوية، النقلية والعقلية ثم التجريبية، حيث ستزدهر بعلمائها الكبار في عهد ابنه علي وباقي فترة دولة المرابطين في الأندلس وبلاد المغرب.

فكان لأمراء المرابطين اهتمام بالغ باللغة والأدب والنثر خاصة، ويعتبر العصر المرابطي الذي بدأه يوسف بن تاشفين العصر الذهبي للنثر الفني بالمغرب والأندلس، إذ ظهر في هذا العصر فطاحل الناثرين وكتّاب الرسائل، من أمثال أبي بكر بن نجد وأبي محمد بن أبي الخصال وأخيه أبي مروان، ثم أبي بكر بن القبطرونة، وقد أكثر المرابطون من إنشاء المساجد في بلادهم حتى قيل إن الأمير يوسف بن تاشفين خطب له على ٦٠٠ منبر، والمساجد كما هو معروف في تلك العصور مراكز للعلوم الإسلامية.([104])

وبرز في عهد الأمير يوسف أيضًاعلماء في الحديث كأبي عبد الله الفاسي شيخ مدينة سبتة، وفي اللسانيات أبو علي التاهرتي ومروان بن سمجون الطنجي، ([105]) بالإضافة إلى العديد من الفقهاء المالكية المغاربة والأندلسيين اللذين كانوا دائمًا في مجلس الأمير المرابطي، حيث كان من المعلوم عن ابن تاشفين تقريبه للعلماء وتفضيله لهم، حتى إنه اتصل بعلماء بلاد المشرق كما حدث مع الإمام أبي حامد الغزالي الذي كان يسمع الكثير عن الأمير يوسف، فقرر أن يذهب إليه في المغرب لكنه عدل عن الأمر بعد سماعه خبر وفاته.

كما كان له اتصال أيضًا بالعالم الفقيه أبي بكر الطرطوشي، وقد كان من جملة المفتين بجواز خلع ملوك الطوائف مع الغزالي لابن تاشفين، الذي كان ببلاد المشرق الإسلامي أيضًا، ويضاف إلى هؤلاء الفقيه المالكي الكبير ابن العربي المعافري، الذي كانت له علاقات مع ابن تاشفين، وجعله هذا الأخير في سفارة إلى الخليفة العباسي.

وبتأسيس دولة المرابطين كأول دولة كبرى في الغرب الإسلامي؛ تجددت الآليات السياسية والهياكل التنظيمية والأجهزة الإدارية لبلاد المغرب والأندلس، فظهرت الوزارة والحجابة وبيت المال ودواوين الجيش والحسبة والمظالم ودار السكة، التي سكت العملة المرابطية في أرجاء البلاد الأندلسية والمغربية، فكانت خير دليل على الإشعاع الحضاري العالمي للدولة المرابطية؛ إذ صارت هذه العملة من العملات النقدية المتداولة في البحر الأبيض المتوسط وأوروبا الغربية، بل وصلت حتى بلاد الروم والدولة البيزنطية.

وقد ارتبط المغرب والأندلس في هذا الوقت حضاريًا بباقي بلدان العالم الإسلامي في الحركة العلمية والتجارية، لا سيما هذه الأخيرة التي تنقسم إلى خطوط الجنوب المرتبطة بالصحراء وجنوبها، وخطوط الشرق المتعلقة بباقي مناطق الشمال الإفريقي المتصلة ببلاد المشرق.([106])

والمشرق الإسلامي في هذه الفترة قد عرف أيضا صحوةً حضارية كبيرة على يد السلاجقة، الذين أشرنا إليهم سابقا في كونهم قد مارسوا نفس عمل المرابطين، في بناء الدولة وتوحيد البلاد وإنقاذ العباد في خراسان وفارس ثم العراق والشام، واستطاعوا فتح شرقي الأناضول ووسطه وتأسيس دولة السلاجقة الكبرى ذات الوصاية على الخلافة العباسية، وكان من أبرز أعلامهم في هذه الحقبة الوزير «نظام المُلك» الطوسي، الذي تولى منصبه لدى السلطان ألب أرسلان وابنه ملكشاه، وكان صاحب الفضل في ظهور المدارس القائمة بذاتها في الحضارة الإسلامية، وهي تلك المعروفة بالمدارس النظامية (نسبة إلى اسمه)، وهو الذي تولى عن طريق هذه المدارس إحياء المذهب السني الأصيل ومحاربة الأفكار الباطنية المنبعثة من المذاهب الشيعية المنحرفة، وعن طريق مدارسه برز علماء أجلاء ساهموا في هذه الصحوة السنية كإمام الحرمين أبو المعالي عبد الملكالجويني (توفي ٤٧٨هـ/١٠٨٥م) وتلميذه الغزالي.

وكان المغرب والأندلس متميزًا من الناحية الفقهية بسيادة المذهب المالكي، الذي توسع وترسخ بمجيء المرابطين، وكان هذا المذهب وفقهاؤه هو المسيطر على كافة المفاصل السياسية والاجتماعية للدولة المرابطية في عهد يوسف بن تاشفين، لكن بعد وفاته تمادى هؤلاء الفقهاء بالمذهب المالكي كثيرًا في هذا الشأن مما كان له أثر سيئ على الدولة.

أما من الناحية الاجتماعية فقد أسس المرابطون مع يوسف بن تاشفين مجتمعًا جديدًا مع إنشاء دولتهم، فتجددت بالتالي عناصر المجتمع الإسلامي فصارت للمرأة أدوار رئيسية في قيادة المجتمع بل وحتى الدولة، فكانت زينب النفزاوية زوجة الأمير يوسف أشهر مثال على مكانة المرأة المسلمة في عهد المرابطين، وهي التي كان لها دور مؤثر في مسيرة ابن تاشفين وبنائه للدولة، الأمر الذي لم يكن من شأنه أن يغير طبيعة المرأة وموقعها في الإسلام، بل لقد ترسخت هذه المكانة بكون المرأة المرابطية ذات دور أساسي في تكوين وتسيير المجتمع المسلم في التربية والتوجيه والترشيد.

وبهذا فإن القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كان من العصور التي تجددت فيها الحضارة الإسلامية بمختلف عناصرها، وبحسب بعض المفكرين والمؤرخين فإن هذا القرن هو آخر فترات الصحوة التجديدية ذات الأثر في التاريخ الإسلامي وحضارته، وفي نفس الوقت هو القرن الذي عاش فيه يوسف بن تاشفين من أوله إلى أخره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الحكم الراشد والتجربة العظيمة

إذا كانت هناك كلمة مناسبة لوصف تجربة يوسف بن تاشفين وحكمه؛ فهي «الرُشد» و «الرشاد»، إذ إن حكمه الذي أسسه في المغرب والأندلس كان حكما راشدًا ورشيدًا، حيث بنى دولته على أسس وقيم الإسلام العليا كالشورى والعدل والحق وإعلاء كلمة الله، حتى صار بالإمكان إدراج تجربته في مصاف تجارب الخلفاء الراشدين أنفسهم.

فقبل كل شيء يوسف بن تاشفين رجل لم يسع إلى الحكم رأسًا بل تم اختياره لذلك، منذ كونه قائدًا للجيش المرابطي الفاتح إلى أن أصبح واليًا على الأجزاء المفتوحة في جنوب المغرب الأقصى، من طرف الأمير المرابطي أبي بكر بن عمر اللمتوني، الذي سيتنازل ليوسف بكل طواعية ورضًا لما رأى فيه من الأحقية والأهلية في الحكم، ومن هنا يمكن أن نقول بأن مسيرة يوسف بن تاشفين السياسية وتجربته في الحكم بدأت بالشورى، حيث لم يطلب السلطة لنفسه بل هي التي طلبته، وهو أيضًا كان محل اختيار أعيان وزعماء القبائل المرابطية عندما طلب إليهم الأمير أبو بكر ذلك وهو مغادر إلى الصحراء، وقبل ذلك هو شخص زكاه الشيخ عبد الله بن ياسين، ثم أقره الأمير أبو بكر واجتمعت عليه بعدها قبائل صنهاجة بأعيانها ووجهائها.

وبهذا المبدأ تمكن ابن تاشفين من تأسيس دولة المرابطين ووسعها في بلاد المغرب، ولم تكن فتوحاته دمويةً بل كان يضطر إلى القوة حينما يواجه الأعداء الجبارين من أصحاب الفرق المارقة والطوائف المنحرفة ورؤساء القبائل الفاسدة، الذين رأوا في المشروع المرابطي التاشفيني تهديدًا وجوديًا لمصالحهم الضيقة.

وكان الأمر على نفس المنوال أيضًا في الأندلس، التي لم يتدخل فيها الأمير يوسف إلا بدافع الجهاد ورد كيد الأعداء وعدوانهم وإنجاد أهل الإسلام، ولم تكن له أي نية سياسية بالسيطرة عليها أو ضمها إلى حكمه في المقام الأول، إلا بعد تمادي ملوك الطوائف في سفالتهم وخيانتهم المتكررة للمسلمين في مقابل انتفاع النصارى الأعداء من هذه الأوضاع القائمة، فأجبر هذا الوضع يوسف على القضاء على ممالك الطوائف بالقوة، ولم يعدمهم بل نفاهم إلى الشمال الإفريقي حيث هلكوا بعد ذلك في منفاهم.

وبعد إنجازه لكل هذا؛ أعاد الاستقرار والأمن والطمأنينة والسلامة إلى البلاد المغربية والأندلسية، التي شملها سلطانه، وأثناء حكمه لها كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين قد استوفى شروط العدل والإصلاح والتمسك بالإسلام ونصرته، وأجمع المؤرخون على كون فترة حكمه ازدهارًا ورخاءً واستقرارًا لدولة الإسلام في منطقة المغرب والأندلس، ويتحدث مؤرخ المغرب الأقصى الناصري على لسان ابن خلكان واصفًا مُلك يوسف العادل الذي أثار انتباه الإمام الغزالي، فقال: «كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حازمًا سائسًا للأمور ضابطًا لمصالح مملكته مؤثرًا أهل العلم والدين كثير المشورة لهم، قال: بلغني أن الإمام حجة الإسلام أبا حامد الغزالي رحمه الله لما سمع ما هو عليه من الأوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم إلى التوجه إليه فوصل الإسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فجاء إليه الخبر بوفاته فرجع عن ذلك العزم».([107])

وهذا من دلائل ما بلغت سمعة أمير المسلمين ودولته العادلة من الحسن والمقام الرفيع، التي جعلت شخصًا كالإمام الغزالي يتجهز ويستعد للرحيل من أجل العيش في كنف الأمير يوسف، بعد أن ذاع صيته في أرجاء العالم الإسلامي لما عُرف عن منطقة الغرب الإسلامي الموحدة تحت سلطانه، والمستقرة والمتمتعة بالعدل والرحمة.

فالأندلس عرفت أخيرًا استقرارًا وأمانًا في عهده بعد عقود مديدة من الاضطرابات والفتن، ويقول مؤلف (الحلل الموشية) في فضل أمير المسلمين يوسف على بلاد الأندلس: «أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة، في رفاهية عيش، وعلى أحسن حال، لم تزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله، وكان الجهاد انقطع بها مدة تسع وسبعين سنة، من مدة آل عامر إلى حين دخوله إليها، قدم أشياخ المرابطين فيها، وكانوا أقواما قد ربتهم الصحراء، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة، ولا مخالطة الأسافيل»([108]).

وعن طريق الجهاد بنى ابن تاشفين مملكته العادلة، فكان جهاده جهاد الحق من أجل إقامة الدين وإعلاء كلمة الله، ولم يكن وسيلة اتخذها من أجلِ السلب والنهب وفرض السياسة الجائرة و تحقيق متاع الدنيا، فكان أن اكتسب بجهاده العظيم سلطةً شرعية وتَسمى بأمير المسلمين، فأصلح أمور دولته ورد أحكام القضاء الشرعي إلى البلاد حيث كان يتفقد أحوال الرعية كل سنة، وقد جرى تعيين القضاة من نخبة العلماء والفقهاء سواءً في المغرب والأندلس، حيث كانوا غير صنهاجيين، ليبرهن على رغبته في تحقيق العدل بين الناس المستمد من الكتاب والسنة.([109])

وعُرف ابن تاشفين أيضًا بتعظيمه لشأن العلماء، حيث كان يصرف الأمور العامة إليهم ويأخذ برأيهم فيها فكان كثير المشورة لهم، ([110]) وهم -كما أشرنا إليه سابقًا- ممن لهم مكانة كبيرة في تجربة يوسف من أولها إلى أخرها، فعن طريقهم ساس الأمير يوسف بالناس سياسةً شرعية، وأبطل جميع الضرائب والمكوس التي لم يقرها الشرع، لتعوض بموارد بيت المال الشرعية من الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم والجزية.([111])

فأقام الشريعة الإسلامية على أحسن وجه، فكان هذا من أعظم مظاهر حكمه الذي أزال به كل سمات الفترة السابقة، المتجلية في ضياع الدين وانقسام الناس إلى طوائف ومذاهب متناحرة ومنحرفة عن السنة، فوحّد الجميع تحت مظلة الإسلام الجامعة وأحكامه العادلة، كما أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بادر بنفسه أيام حكمه إلى الإشراف مباشرة على شؤون الدولة وأمور الرعية والناس وزيارتهم والاستماع إليهم، وكان يشدد الرقابة على ولاته ولا يتردد في عزلهم إن أساءُوا، فقد كان يضع مصلحة الرعية والناس في المقام الأول.([112])

إن المتأمل في سيرة يوسف بن تاشفين وتجربته التاريخية؛ يجدها تقترب كثيرًا من زمن الخلفاء الراشدين الذي يعد أفضل أزمنة الإسلام بعد العهد النبوي، فالأمير يوسف قاتل الإمارات المنحرفة والقبائل المتسيبة التي مزقت المغرب وفرقته أطيافًا ومللًا، كما فعل الخليفة الراشد الأول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) مع القبائل العربية المرتدة عن الإسلام بعد وفاة الرسول ﷺ، التي استطاع في حروب الردة إعادتها إلى الدين وتوحيد شبه الجزيرة العربية من جديد، وهو تقريبًا الأمر الذي فعله ابن تاشفين مع قبائل وإمارات المغرب الأقصى التي كان بعضها بالفعل مرتدًا عن الإسلام،

بتأسيسهم لأديان جديدة وانحراف البعض الآخر إلى مذاهب عقدية شاذة، ليتمكن من القضاء على هذه الطوائف والإمارات وتوحيد المغرب الأقصى تحت راية الإسلام ومنهج السنة الصحيح.

أما عن فتوحاته في المغرب والأندلس فيمكن تشبيهها بفتوحات الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، الذي وسع الدولة الإسلامية إلى خارج شبه الجزيرة العربية وغزا المسلمون في فترته بلاد الروم والإمبراطورية البيزنطية، وقضى على الإمبراطورية الفارسية الساسانية في فتوح العراق وبلاد فارس، كما أن فتح بلاد الشام ومصر وانتزاعهما من الروم البيزنطيين قد أضعف الدولة الرومانية الشرقية وقلل من خطرها، ليفضي بذلك إلى توحيد هذه البلدان جميعًا تحت راية الخلافة الإسلامية، التي تبسط ظلالها على قارتين (آسيا وإفريقيا)، وصارت أقوى الدول في ذلك العصر.

ويوسف أيضا وحد بين قارتين- أو بالأحرى أعاد الوحدة السياسية بينهما- وهما إفريقيا وأوروبا الإسلامية، وتصدى للقوى الصليبية المتحالفة والمكونة من نصارى شمال الأندلس والدعم المسيحي الأوروبي من خلفهم، وسحقهم جميعًا في معركة الزلاقة الظافرة، التي أصبحت من معارك الإسلام الخالدة إلى جانب معركتي اليرموك والقادسية، اللتين انتصر فيها المسلمون على جيوش الروم والفرس في زمن عمر بن الخطاب.

وإلى جانب هذا سار ابن تاشفين على سنن وخصال الخليفة عمر في عدله وحزمه وزهده وورعه، وسار كذلك على أخلاق وصفات وسنن الخليفة الثالث عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، في الفتوح والإدارة والورع والتقوى، أما عن علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) الخليفة الرابع فقد أخذ عنه ابن تاشفين أخلاقه وقيمه العليا، في تأدبه ومروءته وشجاعته العظيمة وحكمته السياسية وحنكته العسكرية، كما لا نبالغ إذا قلنا بأن الأمير يوسف جمع خلاصة الأخلاق الإسلامية العليا عند الصحابة الكرام ومن جاء بعدهم من التابعين والصالحين.

وبهذا نخلص إلى اعتبار سيرة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سيرةً راشدة وفي مستوى الخلفاء الراشدين، وبالتالي نستطيع نحن أيضًا أن نطلق عليه لقب «الخليفة الراشد السادس» كما يحب ذلك بعض العلماء والمفكرين([113])، وذلك بعد إجماع الأمة على كون الخليفة الأموي الاستثنائي عمر بن عبد العزيز هو الخليفة الراشد الخامس.

ونكتفي بعد كل هذا بذكر بعض مظاهر سيرته الراشدة في حياته وآثارها بعد مماته، إذ لم يخض اقتتالًا داخليًا بعد انتهائه من بناء دولته الكبرى، ولم يحارب أحد أفراد أسرته أو أقاربه، وحتى أقاربه البعيدين كصنهاجة إفريقية من بقايا الزيريين وبني حماد لم يقاتلهم ولم يغز مناطقهم ولا فكر بالاتجاه إلى ناحية الشرق بعد توقفه في المغرب الأوسط، بل كان كل همه منصبًا على الجهاد في الأندلس والرباط على ثغورها، وحتى إن ظهر له معارض أو متمرد داخل مجال سلطانه (وهذا غير مستبعد)؛ فمن المرجح أن يتعامل معه بالتي هي أحسن وبما فيه الخير والصلاح للبلاد والعباد، وهذا إن ثبت تاريخيًا فهو لم يؤثر بشكل سلبي على مصير دولته في عهده.

وبقي لنا أن نقول أيضًا إن أعظم مآثر يوسف بن تاشفين في سيرته العظيمة وتجربته الراشدة والرشيدة؛ هو أنه بعد وفاته (رحمة الله عليه) في عام ٥٠٠هـــ/١١٠٦م ترك دولةً قويةً متماسكة استمرت في الجهاد الأندلسي وفي الإصلاح والعدل، وإن شابها بعض المساوئ مع مرور الوقت أدت

بها نحو الاضمحلال والسقوط، فهذا من سنن التاريخ والحضارات، لكن الذي يستوقف النظر في شأن دولة المرابطين هذه هو أن من أعظم ما يميزها عبر التاريخ خلوها من أي منازعات وصراعات بين أبناء البيت المرابطي التاشفيني الحاكم، وهذا الأمر لهو بحق من النوادر التاريخية التي تُحسب إيجابيًا لصالح مؤسس دولة المرابطين يوسف بن تاشفين.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الختام

لا يسعنا في نهاية هذا الكتاب سوى أن نعبر عن ضرورة استقراء واستنطاق تاريخنا واستحضار تجارب حضارتنا الإسلامية ورموزها السياسية والثقافية، وكشف الستار عن السير المنسية للقادة العظام الذين تركوا بصمتهم وأثرهم العميق، وليس صحيحًا أن نكتفي بحصر العبر والدروس التاريخية في الزمن الأول حيث عهد النبوة والخلافة الراشدة، فبالرغم من الانحراف السياسي الذي تلا عصر الخلفاء الراشدين إلا أن هناك نماذج جاءت فيما بعد استلهمت من المثال الراشدي ، فكان من بينهم هذا النموذج الذي نشأ في أقصى غرب العالم الإسلامي وهو الذي تناولناه في هذا العمل، إذ إن تجربة يوسف بن تاشفين التاريخية تعد بحق تكرارًا نوعيًا للنموذج الراشدي.

وقد حان الوقت لنفض الغبار عن هذه الكنوز التاريخية التي تُخبئُ لنا الكثير من الفوائدِ والعظات، ويتوجب علينا أن نسترشد بها ونتعلم من مثل هذه التجارب العظيمة، التي تمثل ديمومةً واستمرارًا لقيم الإسلام وتطبيقاته العملية، بعيدًا عن الصورة السوداء التي يرسمها البعض عن تاريخنا الإسلامي، فهو في النهاية يدخل ضمن التجارب البشرية التي تخطئ وتصيب، وإن كان أهلها خير أمة أخرجت للناس، فإن للكون وللتاريخ سنن ونواميس، وسنن الله لا تحابي أحدًا.

وفي نفس الوقت فإننا لا نزعم كون تجربة يوسف بن تاشفين ملائكيةً وخاليةً من أي مساوئ؛ بل لا بد من وجود بعض السلبيات، وإن لم أذكرها فهذا ليس لأنني لا أريد ذكرها بل لأنني لم أصل إليها ولم أتوصل بها، لكن الحقيقة الثابتة هو أنه مهما كان هناك من مساوئ فهي لم تؤثر على الصورة الكاملة لهذه التجربة العظيمة، التي تعد أقرب إلى تجارب الخلفاء الراشدين، مع أن في عصر الخلافة الراشدة بعض الأمور السلبية كأحداث الفتنة الكبرى والخلافات السياسية بين الصحابة؛ إلا أنه يعد أفضل العصور الإسلامية بعد عصر النبي -عليه الصلاة والسلام- ، حيث تجسد فيه دين الإسلام ومنظومته تجسدًا تامًا، ولهذا العصر فعلًا امتداداته اللاحقة في التاريخ، كتلك التي اشتغلت عليها في هذه الدراسة، إذ كانت الفترة التي أسسها يوسف بن تاشفين تجسُّدًا عظيمًا للإسلام.

وتجربة يوسف بن تاشفين جعلت منه رجل النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، لكنه كشخص لم يأت من فراغ بل تمخض عن حركة إحيائية وإصلاحية يتزعمها شيخ مجدد، وهو عبد الله بن ياسين معلمه الذي ترك له الدفة من بعده، ليحول ابن تاشفين حركة المرابطين هذه إلى دولة عظمى بعد الفتوح والإنجازات والتوسع في المغرب وضم الأندلس، فكانت دولة المرابطين إحياءً من جهة لكونها أحيت الإسلام في قلوب سكان الصحراء ومناطق المغرب الأقصى التي ضربتها موجة الانحراف العقائدي، ثم إصلاحًا من جهة أخرى استهدفت به المجتمع الإسلامي في بلاد المغرب والأندلس، لا سيما هذه الأخيرة التي أزيلت عنها سلطة ملوك الطوائف ومن ثم إنقاذها من الهلاك المحتوم على يد العدو الصليبي.

وبالتالي فإن دراسة شخصية يوسف بن تاشفين وعصره وسيرته وسياساته؛ بات من ضرورات البحث العلمي التاريخي الغيور على تاريخ الأمة الإسلامية وحاضرها وكذا مستقبلها، وهو من واجبات هذا العصر الذي يتسم بالتراجع والنكوص والانحطاط، فصار مثل هذا الأمر ضرورة ملحة من أجل إحياء حضارتنا وإقامتها وإنهاض أمتنا.

والحقيقة أن عملي هذا مجرد بداية متواضعة من البدايات لا أكثر، أما ناصية الأمور فهي عند من يمتلك الأدوات والموارد المتنوعة والمتعددة، وعند من يترأس موقعًا سياسيًا متنفذًا في التعليم والإعلام والثقافة، هذه المجالات الثلاثة التي تبني الإنسان وتكون هويته، وتسير وعيه وتؤسس فكره، وتجعله فردًا صالحًا ومصلحًا لمجتمعه، فمن أجل نهوضنا الحضاري واستعادة عزتنا وريادتنا وسيادتنا المفقودة؛ يتوجب استخدام مثل هذه الموارد والآليات والأدوات في استثمار مثل هذه الدراسات، وتكثيف الاهتمام بهذه التجارب التاريخية المستنيرة التي لاتخلو من فوائد هامة، والله تعالى أعلم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

كتب التاريخ العام:

- عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى بديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، الجزء السادس، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١ه-٢٠٠٠م.

- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الثالثة، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.

- علي بن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة الوراقة، الرباط، ١٩٧٢م.

- أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الجزء الرابع، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨ه-١٩٦٨م.

- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، الطبعة الثالثة، القاهرة، ١٣٨٣ه-١٩٦٣م.

- مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، الطبعة الأولى، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٣٩٩ه-١٩٧٩م.

- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الجزء الثاني، تحقيق محمد العرب، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٦ه-٢٠٠٥م.

- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، الجزء الرابع، تحقيق محمد عبد الله عنان، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٣٩٨ه-١٩٧٧م.

- جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، الطبعة الأولى، دار ابنحزم، بيروت، ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م.

- مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

- ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، الجزء الثالث، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٨٧م.

- أحمد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الجزء الثاني، تحقيق محمد عثمان، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت ، ٢٠١٠م.

كتب السير والتراجم:

- شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، الجزء التاسع عشر، تحقيق شعيب الارنؤوط، الطبعة ١١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٧ه-١٩٩٦م.

- ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، الجزء الخامس، تحقيق عبد القادر الارنؤوط ومحمد الارنؤوط، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ١٤٢٠ه-١٩٨٩م.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، الجزء السابع، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨ه-١٩٧٨م.

المراجع والدراسات

الكتب العامة:

- حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٢ه-١٩٩٢م.

- معالم تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الثانية، دار الرشاد، القاهرة، ١٤١٨هـ-١٩٩٧م.

- إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الجزء الأول، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٤٢٠ه-٢٠٠٠م.

- حامد محمد الخليفة، انتصارات يوسف ين تاشفين بطل معركة الزلاقة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقد الأندلس من الصليبيين، الطبعة الأولى ، مكتبة الصحابة، الامارات، مكتبة التابعين، القاهرة، ١٤٢٥ه-٢٠٠٤م.

- علي محمد الصلابي، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، الطبعة الأولى، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ١٤٢٤ه-٢٠٠٣م.

- علي محمد الصلابي، فقه التمكين عند دولة المرابطين، الطبعة الأولى، مؤسسة اقرأ، القاهرة، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٦م.

- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام: السياسي، الديني، الثقافي، الاجتماعي، الجزء الرابع، الطبعة ١٥، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة، ١٤٢٢ه-٢٠٠١م.

- محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١١هـ-١٩٩٠م.

- حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس: عصر المرابطين والموحدين، الطبعة الأولى، مكتبة الخانجي، مصر، ١٩٨٠م.

- شوقي أبو خليل، الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، الطبعة الثانية، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، ١٩٨٠م.

- إبراهيم الهلالي، حضارة مراكش والإشعاع الفكري لجامعة ابن يوسف، الجزء الأول ، الطبعة الأولى، المطبعة الوراقة الوطنية، مراكش، ٢٠٠١م.

- محمد القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، الطبعة الأولى، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، ٢٠١١م.

- محمد محمود بن بيه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، الطبعة الأولى، دار الأندلس الخضراء، جدة، دار ابن حزم، بيروت، ١٤٢١ه-٢٠٠٠م.

- سعيدعبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، الجزء الأول، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلومصرية، ٢٠١٠.

- يوسف أشباخ، الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

-كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، الطبعة ١٥، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢م.

الندوات

- المغرب في الدراسات الاستشراقية، الندوة السادسة للجنة القيم الروحية والفكرية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مراكش، ١٤١٣هـ-١٩٩٣.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

المراجع باللغة الأجنبية

- Chalandon, Histoire de la première Croisade jusqu’à l’élection de Godefroi de Bouillon. In: Revue belge de philologie et d’histoire, tome 5, fasc. 4, 1926.

- Dozy, 1932. Histoire des Musulmans d’Espagne. T3, Leyde.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

فهرس..

Notes

[←1]

(1) هم سكان شمال افريقيا الأقدمون، واسمهم التاريخي هو البربر، لكن نظراً لما تثيره هذه التسمية الآن من لغط وتشاحن؛ فإنني قررت عدم استعمالها في هذا العمل واختيار اسم «أمازيغ» بدلاً منها، بالرغم من كونه اسما معاصرا ليس له أي سند علمي تاريخي معتبر، بل فقط لكونه في محل الإجماع الراهن.

[←2]

(2) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، ط.1، العصر الحديث للنشر والتوزيع، بيروت، 1412ه- 1992م، ج.2، ص. 18، 16.

[←3]

(3) عبد الرحمن بن خلدون، تاريخ ابن خلدون المسمى بديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، 1421ه-2000م، ج.6، ص.241.

[←4]

(4) أحمد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق محمد عثمان، ط.2، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010م، ج.2، ص.176.

[←5]

(5) حامد الخليفة، انتصارات يوسف ين تاشفين بطل معركة الزلاقة وقائد المرابطين موحد المغرب ومنقذ الأندلس من الصليبيين، ط.1، مكتبةالصحابة، الامارات، مكتبة التابعين، القاهرة، 1425هـ-2003م، ص41

[←6]

(6) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ط2، دار الرشاد، القاهرة، 1418هـ-1997م، ص 182

[←7]

(7) علي الصلابي، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، ط.1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، 1424ه-2003م، ص.66

[←8]

(8) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، م.س، ص 186- 185

[←9]

(9) علي الصلابي، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، م.س، ص. 67

[←10]

(10) حسن إبراهيم حسن، تاريخالإسلام: السياسي، الديني، الثقافي، الاجتماعي، ط.15، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1422ه-2001م، ج.4، ص.114

[←11]

(11) أحمد الناصري، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م.س، ص.183.

[←12]

(12) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ط.1، دار صادر، بيروت، 1398ه-1978م ج.7، ص.130.

[←13]

(13) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق محمد العرب، المكتبة العصرية، بيروت، 1426ه-2005م، ج.2، ص.2057-2058.

[←14]

(14) محمد عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ط 2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1411هـ-1990م، ج 3، ص 37

[←15]

(15) علي الصلابي، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، م.س، ص.67-68

[←16]

(16) مؤلف مجهول، الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، ط.1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء 1399ه-1979م، ص.24-25.

[←17]

(17) ابن العذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، ط.3، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ج.4، ص.22.

[←18]

(18) حامد الخليفة، انتصارات يوسفبن تاشفين، م.س، ص.53-54

[←19]

(19) الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م.س، ص.189.

[←20]

(20) حسين مؤنس، تاريخ المغرب وحضارته، م.س، ص. 25-26

[←21]

(21) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، م.س، ص.28.

[←22]

(22) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة الوراقة، الرباط، 1972م، ص. 142

[←23]

(23) الناصري، الإستقصا، م.س، ص.191.

[←24]

(24) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ص 208-209

[←25]

(25) نفس المصدر، ص 209

[←26]

(26) إبراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 1420هـ-2000م، ج.1، ص.161

[←27]

(27) إبراهيم الهلالي، حضارة مراكش والإشعاع الفكري لجامعة ابن يوسف، ط.1، المطبعة الوراقة الوطنية، مراكش، 2001م، ج.1، ص.23

[←28]

(28) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ط.3، القاهرة، 1383ه-1963م، ص.156.

[←29]

(29) إبراهيم الهلالي، حضارة مراكش والإشعاع الفكري لجامعة ابن يوسف، م.س، ص.24-25

[←30]

(30) تاريخ ابن خلدون، م.س، ص.245.

[←31]

(31) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الارنؤوط، ط.11، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1417ه-1996م، ج.19، ص.252-253.

[←32]

(32) تاريخ ابن خلدون، م.س، ص.246.

[←33]

(33) الخليفة، انتصارات يوسفبن تاشفين، م.س، ص.65

[←34]

(34) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق إحسان عباس، ط.3، دار الثقافة، بيروت، 1983م، ج.4، ص.28.

[←35]

(35) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، م.س، ص.139.

[←36]

(36) نفس المصدر، ص.141.

[←37]

(37) المغرب عبر التاريخ، م.س، ص. 161

[←38]

(38) تاريخ المغرب وحضارته، م.س، ص.27

[←39]

(39) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ، م.س، ص.29

[←40]

(40) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، م.س، ص.29

[←41]

(41) تاريخ ابن خلدون، م.س، ص.248

[←42]

(42) الإستقصا، م.س، ص.196

[←43]

(43) علي الصلابي، فقه التمكين عند دولة المرابطين، ط.1، مؤسسة اقرأ، القاهرة، 1428ه-2006م، ص.64

[←44]

(44) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، م.س، ص 189

[←45]

(45) سميت بالاسترداد لزعم النصارى الأيبيريين بكون حربهم الصليبية ضد المسلمين في الأندلس من أجل استرداد واسترجاع أراضيهم التي فتحها المسلمون، وقد بدأت هذه الحرب منذ إتمام المسلمين لفتح الأندلس عام 94هـ/718م، على يد بلاي الذي هاجم المسلمين في أقصى شمال شبه جزيرة إيبيريا بدعم كبير من الفرنجة والأوروبيين الذين أمدوه بالسلاح والأموال والقوة البشرية التي ستصير احتلالاً واستيطاناً، فتشكلت بالتالي الممالك المسيحية، التي ستقود حرباً منظمة برعاية بابا روما من أجل القضاء على المسلمين في الأندلس.

[←46]

(46) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، م.س، ص.2129.

[←47]

(47) علي الصلابي، فقه التمكين عند دولة المرابطين، م.س ، ص. 71

[←48]

(48) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، ط.3، 1383ه-1963م، القاهرة، ص.190.

[←49]

(49) أحمد المقري التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ط.1388ه-1968م، دار صادر بيروت، ج.4، ص.354.

[←50]

(50) مؤنس ، تاريخ المغرب وحضارته، م.س، ص.30-31

[←51]

(51) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، م.س، ص.145.

[←52]

(52) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، م.س، ص.190-191.

[←53]

(53) الانيس المطرب، م.س، ص.146-147.

[←54]

(54) شوقي أبو خليل، الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، ط.2، دار الفكر للطباعة والتوزيع، دمشق، 1980م، ص 43-44.

[←55]

(55) حامد الخليفة، انتصارات يوسفبن تاشفينم.س، ص. 146.148.

[←56]

(56) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م.س، ص.351-352.

[←57]

(57) الفاسي، الأنيس المطرب، م.س، ص.149.

[←58]

(58) انتصارات يوسفبن تاشفين، م.س، ص. 150-151.

[←59]

(59) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، م.س، ص.195.

[←60]

(60) الفاسي، الأنيس المطرب، م.س، ص.152.

[←61]

(61) الحلل الموشية في ذكر الاخبار المراكشية، م.س، ص.68-69.

[←62]

(62) نفسه.

[←63]

(63) فقه التمكين عند دولة المرابطين، م.س، ص.109.

[←64]

(64) انتصارات يوسفبن تاشفين، ن.م، ص. 168.

[←65]

(65) كارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، ط.15 دار العلم للملايين، بيروت، 2002م، ص.321-322.

[←66]

(66) حسن إبراهيم حسن، تاريخالإسلام: السياسي، الديني، الثقافي، الاجتماعي، ط.15، دار الجيل، بيروت، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1422ه-2001م، ج.4، ص. 118-119.

[←67]

(67) فقه التمكين عند دولة المرابطين، م.س، ص.117-118.

[←68]

(68) الحلل الموشية، م.س، ص.71.

[←69]

(69) ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب، م.س، ص.155-156.

[←70]

(70) فقه التمكين عند دولة المرابطين، م.س، ص. 118.

[←71]

(71) معالم تاريخ المغرب والأندلس، م.س، ص 199

[←72]

(72) الذهبي، سير أعلام النبلاء، م.س، ص.252.

[←73]

(73) محمد القبلي، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، ط.1، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2011م، ص.161

[←74]

(74) حضارة مراكش والإشعاع الفكري لجامعة ابن يوسف، م.س، ص. 216-217.

[←75]

(75) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، م.س، ص.227.

[←76]

(76) ابن أبي زرع، الأنيس المطرب، م.س، ص.136-137.

[←77]

(77) سير أعلام النبلاء، م.س، ص. 254.

[←78]

(78) تاريخ ابن خلدون، م.س، ص.250.

[←79]

(79) عبدالله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، م.س، ص 45

[←80]

(80) الفاسي، الأنيس المطرب، م.س، ص.156.

[←81]

(81) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، م.س، ص.82-83.

[←82]

(82) نفس المصدر، ص.83.

[←83]

(83) الأنيس المطرب، م.س، ص.156.

[←84]

(84) شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص.252-253.

[←85]

(85) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط.1، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1398ه-1977م، ج.4، ص.349.

[←86]

(86) ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الارنووط ومحمد الارنووط، ط.1، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1420ه-1989م ج.5، ص.427.

[←87]

(87) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، ط.1، دار صادر، بيروت، 1398ه-1978م ج.7، ص.124-125.

[←88]

(88) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، م.س، ص.81-82.

[←89]

(89) يوسف أشباخ، الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1417هـ-1996م، ص 71

[←90]

Dozy, Histoire des Musulmans d’ Espagne.T3., Leyde. 1932, P.168(90)

[←91]

(91) المغرب في الدراسات الاستشراقية، الندوة السادسة للجنة القيم الروحية والفكرية، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مراكش، 1413هـ-1993، ص 104

[←92]

(92) ابن حزم، رسائل ابن حزم الأندلسي، تحقيق إحسان عباس، ج3، المؤسسة العربية للدراسات، 1987م، ص 617

[←93]

(93) حركات، المغرب عبر التاريخ، م.س، ص.186-187.

[←94]

(94) جلال الدين السيوطي، تاريخ الخلفاء، ط.1، دار ابن الحزم، بيروت، 1424ه-2003م، ص.334.

[←95]

(95) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، م.س، ص.27.

[←96]

(96) ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، م.س، ص.227.

[←97]

(97) تاريخ ابن خلدون، م.س، ص.250.

[←98]

(98) الأنيس المطرب، م.س، ص.137.

[←99]

(99) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، م.س، ص.350.

[←100]

(100) حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام، م.س، ص.301.

[←101]

(101) علي الصلابي، الجوهر الثمين بمعرفة دولة المرابطين، م.س، ص.155-156.

[←102]

Chalandon Histoire de la première Croisade jusqu›à l›élection de (102) Godefroi de Bouillon. In: Revue belge de philologie et d›histoire, tome .fasc. 4, 1926, pp 37-41 ,5

[←103]

(103) سعيد عاشور، الحركة الصليبية، ط1، مكتبة الأنجلومصرية، 2010، ج1، ص 93-99

[←104]

(104) حسين مؤنس، معالم تاريخ المغرب والأندلس، ن.م، ص 215

[←105]

(105) المغرب في الدراسات الاستشراقية، م.س، ص 101-102

[←106]

(106) حسن علي حسن، الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس:عصر المرابطين والموحدين، ط.1، مكتبة الخانجي، مصر، 1980م، ص278

[←107]

(107) الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، م.س، ص.215.

[←108]

(108) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، م.س، ص.82-83.

[←109]

(109) المغرب عبر التاريخ، م.س، ص. 200.

[←110]

(110) محمد محمود بن بيه، الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، ط1، دار الأندلس الخضراء، جدة، دار ابن حزم، بيروت ، 1421 ه-2000م، ص. 167.

[←111]

(111) المغرب عبر التاريخ، م.س، ص. 213

[←112]

(112) فقه التمكين عند دولة المرابطين، م.س، ص. 131-132.

[←113]

(113) من بين هؤلاء المفكرين والدعاة: المغربي أبو زيد المقرئ الإدريسي وكذلك الكويتي طارق السويدان.